وباء العلمانية

وهل له مبرر في العالم الإسلامي

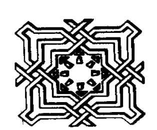
وهو ملخص سفر العلمانية

للشيخ سفر الحوالي

مكتبة التوعية الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ

رقم الإيداع
٢٠٠٦-٢٢٨١٨



بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فما له من هاد ، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . »

أما بعد

فهذه الرسالة التى بين يديك قارئى الكريم هى جزء من رسالة ماجستير بعنوان « العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة »
كان قد تقدم بها الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالى إلى جامعة أم القرى وقد قامت الجامعة مشكورة بطباعتها فى مجلد ضخم ، رأينا أن ننشر هذا الجزء منها ، والذى يعطى فكرة سريعة عن هذا الوباء الذى مُنى به العالم الإسلامى ، وافتتن به بعض ضعاف النفوس والإيمان من أذناب المستشرقين والمستغربين ، الذين وضعوا زرعاً فى غير أرضه فكانت :

﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾
[سورة إبراهيم :٢٦]

حتى يتبين الناس خبث هذا الوباء فيلفظونه ، وتستقر لهم الحياة الهانئة فى ظل إسلامهم وإيمانهم .
وقد قسم المؤلف الموضوع إلى خمسة أبواب :

* **الباب الأول** : موضوعه دين أوروبا الذي انحرفت عنه إلى اللادينية ، أثبت فيه تحريف الدين النصراني وأنه لايمثل دين الله الحق لا في العقيدة ولا في الشريعة وتعرض بالنقد للتحريفات والبِدَع والخرافات النصرانية . ورغم اتفاقه مع دعاة اللادينية في نقد النصرانية ، فقد كان مخالفاً لهم في منهجهم ، وفي بعض الأحيان

يعرض وجهة نظرهم وينقدها .

ويلحظ القارىء في هذا الباب الإفاضة وعدم التساهل ، وما ذاك إلاّ نتيجة اقتناع المؤلف بأن السبب الأكبر في انحراف أوروبا من صنع الكنيسة ، وأنَّ الإسلام يحارب الخرافة كما يحارب الإلحاد .

* **الباب الثانى** : موضوعه أسباب العلمانية .

مع أن تحريف النصرانية في الحقيقة هو السبب الممهِّد للعلمانية فقد خصص هذا الباب للأسباب المباشرة لها ، وهي :

١ – **الطغيان الكنسي** : دينياً وسياسياً ومالياً ، مؤيداً بالشواهد التاريخية .

٢ – **الصراع بين الكنيسة والعلم** ، عَرَضَ فيه الصراع النكد عرضاً تاريخياً منذ نظرية « كوبرنيك » إلى نظرية « نيوتن » مروراً بمدرسة النقد التاريخي ومذهب الربوبيين والملحدين الأوائل .

٣ – **الثورة الفرنسية** التي نجحت في إقامة أول دولة لادينية في أوروبا النصرانية ، وقد أوضح أسبابها وآثارها واستغلال القوى الهدامة لها .

٤ – **نظرية التطور** التي كانت إيذاناً بانتهاء وصاية الكنيسة الفكرية على أوروبا وانسحابها من الميدان ، إلى الأبد .. وقد تحدث عن الآثار المدمرة للنظرية في الفكر والحياة وتطبيقها المريب في حقول المعرفة وميادين السلوك .

يقول المؤلف :

« والحق أنَّ هناك أسباباً قد لا تقل عن هذه ، غير أنني آثرت أن لا أعرضها ، بصفتها أسباباً مستقلة ؛ فالقوى الهدّامة : « اليهود » ، يمكن اعتبارها سبباً مستقلاً ، لكنني لم أعرضها بهذا الاعتبار ؛ لأن اليهود — كما سيتضح من ثنايا البحث — يستغلون الأحداث ولا يصنعونها ، فاكتفيت بعرض نماذج من استغلالاتهم في مواطنها ، مثل :

استغلال الثورة الفرنسية لتحطيم الرابطة الدينية والخروج من (الجيتو) .. واستغلال الداروينية لنشر الإلحاد والإباحية .. واستغلال الثورة الصناعية للسيطرة على اقتصاد العالم .. واستغلال الديمقراطية لتوجيه السياسة الدولية ..

على أنني قد عرضت نظريات اليهود مستقلة في مواطنها ، مثل « ريكاردو وماركس » في الاقتصاد ، « ودور كايم وفرويد » في الاجتماع والأخلاق ، وذلك لضمان وحدة الموضوعات وتماسكها . ومثل هذا يقال في حركة الإصلاح الدينى التي هزّت الكنيسة وحطمت الوحدة الشكلية للعالم المسيحي » .

وقد لخصنا هذا الباب لأهميته ولأن هناك إحالات كثيرة إليه فى باب حكم العلمانية فى الإسلام ، وليعرف السادة القراء الأسباب الحقيقية لظهور العلمانية ثم يقارنوا بينها وبين ظروف نشأة العلمانية . ويجدوا بأنفسهم الإجابة على سؤال :

هل للعلمانية فى الحياة الإسلامية مبرر ؟

* **الباب الثالث : العلمانية في الحياة الأوروبية :**

وهو الباب الرئيسي في الموضوع ، وقد قسمه — ستة فصول :

الفصل الأول : العلمانية في الحكم والسياسة ، تعرض فيه للفكر السياسي اللاديني وأشهر نظرياته ، مثل : « النظرية الخيالية ، نظرية العقد الاجتماعي ، نظرية الحق الإلهي » ، ثم النظريات الحديثة التي تقوم على « الميكيافيللية ، فلسفة التطور ، الديمقراطية » بتفسيريها : الليبرالي والشيوعي . يقول :

« وقد انتهجت أسلوب النقد بطريق العرض ، فقد كنت أعرض أيّ نظرية كما يراها أصحابها ، عرضاً يوحي للقارىء بنقدها دون أن أتقوّل عليهم ، وهكذا في بقية الفصول .

وقد رأيت أن أفضل أسلوب لردّ هذه النظريات هو عرض آثارها الواقعية ونتائجها التطبيقية ، مستشهداً بشهود من أهلها ، وذلك لسببين :

١ – أنَّ تطبيق أي نظرية هو المحكّ الحقيقي لنجاحها أو إخفاقها .

٢ – أنَّ مناقشة تفصيلات النظريات اللادينية المختلفة — فوق كونها تستهلك جهداً كبيراً — لا تتفق مع حكم الإسلام فيها ، الذي يرفض تلك التصورات جملة رفضاً أساسياً ، كما سيتضح في الباب الخامس . »

الفصل الثاني : العلمانية فى الاقتصاد ، تحدث فيه عن النظام الإقطاعي ، ثم عن المذاهب اللادينية الاقتصادية : « المذهب الطبيعى » (الفيزيوقراطي) ، « المذهب الكلاسيكي الرأسمالي ، المذهب الشيوعي » ، عارضاً نظريات كل مذهب ، ثم عقب على ذلك بعرض الواقع المعاصر والنتائج الفظيعة التي نجمت عن فصل الاقتصاد عن الدين ، مؤيّداً كل ذلك بالشواهد الواقعية ، سواء في الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي .

الفصل الثالث : علمانية العلم ، تحدث فيه عن الأسس والملابسات التي قامت عليها لادينية العلم ، مثل موقف الكنيسة والإرث الدينى والوثني في النفسية الأوروبية ، الذي يصور الإله عدوّاً للإنسان يتعمد تجهيله كما في سِفر التكوين وأساطير الإغريق .. ومظاهر لادينية العلم ، مثل : استبعاد الغائية والاكتفاء بالعلل الصورية ، حذف اسم الله من أي بحث علمي والاستعاضة بتعبيرات ملتوية كما في مسألة أصل الحياة ، وتعميم التفسيرات الميكانيكية للكون والحياة ، ورفع شعار « العلم للعلم » — في الغرب — « والعلم للمذهب » — في الدول الشيوعية .

ثم عقب بالحديث عن أثر الفصل بين العلم والدين في المجتمع المعاصر ونتائجه السيئة ، مثل انتشار الإلحاد وظهور الفوضى العقائدية والقلق على الأجيال المثقفة واستحالة العلم نفسه إلى خطر يهدد البشرية جمعاء .

الفصل الرابع : علمانية الاجتماع والأخلاق ، مهّد له بالحديث عن مجتمع وأخلاق القرون الوسطى في ظل الكنيسة ، ثم فصّل القول في النظريات والمدارس الاجتماعية اللادينية — مبتدئاً بالحديث عن أصول وولادة علم الاجتماع — وهي « نظرية العقد الاجتماعي ، المدرسة الطبيعية ، المدرسة الوضعية العقلية (كَانْتْ ، دوركايم) ، النظرية الاجتماعية الشيوعية ، النظرية العضوية والنفعيون ، الدراسات

النفسية الحديثة (السلوكية ، التحليل النفسي) » ، ثم أردف لذلك بالحديث عن الواقع الاجتماعي والأخلاقي المعاصر مكتفياً بنموذج واحد ، هو قضية المرأة وما نجم عنها من الشرور الاجتماعية المستطيرة .. وقدّم نماذج واقعية للهبوط الخلقي الشائن الذي تعاني منه المجتمعات اللادينية المعاصرة ، شرقاً وغرباً .

الفصل الخامس : العلمانية في الأدب والفن ، تحدث فيه عن الاتجاهات الأدبية الأوروبية :

١ – عصر النهضة « الكلاسيكية الجديدة » وما هدفت إليه من بعث التراث الوثني الإغريقي .وإنماء النزعة الإنسانية .

٢ – العصر الحديث :

(ا) الرومانسية : تصويرها للهروب ، مثاليتها ، تأليه الطبيعة .

(ب) الواقعية : نشأتها ، أهدافها ، ميزاتها الفنية .

٣ – الأدب المعاصر « من الواقعية إلى اللامعقول » المؤثرات الفكرية والاجتماعية فيه ، اتجاهاته الكبرى :

(ا) الإباحية ، مع سرد نماذج لها .

(ب) الضياع « اللا انتماء » ، مع أمثلة أدبية له .

وفي مقابل الواقع المعاصر في كل مجال عَرضَ نماذج موجزة لمدارس الضياع المعاصرة « الوجودية ، الرمزية ، السوريالية ، العدمية .. إلخ » .

الفصل السادس : ماذا بقي للدين ؟ وهو تكملة عامة للباب مع التركيز على يوم الدين أو « ساعته ! » وبيان الإفلاس الذي مُنِيَتْ به الكنائس وكيف أصبحت مَباءات للمفاسد العصرية .

*** الباب الرابع : العلمانية في الحياة الإسلامية :**

يقول المؤلف :

« وقد قسمت هذا الباب فصلين كبيرين :

الفصل الأول : أسباب العلمانية في العالم الإسلامي ، وقد أوجزتها في سببين بارزين :

١ – **انحراف المسلمين** الذي يقابل تحريف النصرانية في أوروبا ، أوضحت فيه صور ذلك الانحراف ، لاسيما ما يتعلق منها بالتوحيد والعقيدة وانحسار مفهومات الإسلام في مجال الشعائر التعبدية بتأثير الأفكار الصوفية والركود الحضاري العام ، واختتمته بنماذج لتقبل المسلمين الذاتي للعلمانية .

٢ – **التخطيط اليهودي الصليبي** : تحدثت فيه عن جذور العداوة التاريخية للمسلمين من قبل اليهود والنصارى وأبديّتها والخطة الجديدة للغزو وإفادتها من الواقع الإسلامي المنحرف ، وقسمت المؤامرة أربعة أجنحة كبرى (قوى الاحتلال المباشر ، المستشرقون ، المبشرون ، الطوائف اليهودية والنصرانية والباطنية) .. وفصلت القول في جهود وأعمال كل جناح في سبيل تحقيق الهدف المشترك : إخراج المسلمين من دينهم وصبغهم بالصبغة الغربية اللادينية .

الفصل الثاني : مظاهر العلمانية في الحياة الإسلامية .. وهو فصل كبير قسمته إلى ثلاثة أقسام :

١ – **في الحكم والتشريع** ، تحدثت فيه عن بداية الانحراف المتمثلة في تخلف المسلمين الحضاري ، وجمود الاستنباط الفقهي ، وتوهُّم دعاة اليقظة بأن سبب تأخُّر المسلمين هو عجزهم التنظيمي والإداري وما أدى ذلك إليه من تبلور فكرة « الإصلاح » واستيراد التنظيمات ثم التشريعات الكافرة وكيف انتهى الأمر بالحركة الإصلاحية إلى العلمانية الكاملة في « تركيا » ، وإلى إقصاء الشريعة في البلاد العربية — ومصر خاصة — بالتعاون بين الاستعمار ودعاة الإصلاح ، وأثر ذلك في ظهور الأفكار السياسية اللادينية والأحزاب المتعددة الانتماءات .

٢ – **في التربية والثقافة** : تحدثت فيه عن المستوى التربوي والثقافي للعالم

الإسلامي قبل احتكاكه بالحضارة الغربية اللادينية وكيف تمت الازدواجية الخطرة في التعليم ، وحركة التغريب الأولى ، ثم عن الدعوات الهادفة إلى لادينية التربية والثقافة ، مثل « الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية خيرها وشرها ، واحتقار الماضي الإسلامى تربوياً وتاريخياً ، وتطوير الأزهر ، وتطبيق المناهج التعليمية الغربية ، واستيراد المذاهب اللادينية في الفكر والأدب » .

٣ – **في الاجتماع والأخلاق** ، ابتدأته بالحديث عن سوء تمثيل المجتمع الإسلامي لحقيقة الإسلام ، والتقبل الذاتي لتقليد الغرب .. ثم فصّلت القول فيما سُمي « قضية تحرير المرأة » ، ابتداء من جمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي ، وانتهاء بقاسم أمين وحركة النهضة النسائية! . مع إيضاح دور العلماء والزعماء والأدباء الذين أسهموا في المؤامرة ، وسريان الفكرة إلى بلاد الشام والمغرب ، فضلاً عن « تركيا » ، والنتائج الواقعية لها . »

* **الباب الخامس : حكم العلمانية في الإسلام** :

وهو خاتمة أبواب الرسالة ، وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول وهو فصل تمهيدى بعنوان : هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر ؟ أوضح فيه المؤلف الفروق الجوهرية بين الإسلام والنصرانية المحرّفة عقيدةً وشريعةً وتاريخاً وواقعاً ، مما ينفي أي مبرر عقلي لاستيراد هذا المذهب المنحرف .

ــ **الثاني : حكم العلمانية في الإسلام** : بيّن فيه حكم العلمانية على ضوء أصول العقيدة الإسلامية والمدلول الحقيقي لكلمة « لا إله إلاّ الله » ومفهومَي « الطاغوت والعبادة » ، وكانت النتيجة هي أن العلمانية تتنافى مع الإسلام من جهتين :

١ – كونها حُكماً بغير ما أنزل الله .
٢ – كونها شِركاً في عبادة الله ، ولقد فصّل القول في ذلك مورِداً الأدلة من الآيات والأحاديث ومستشهِداً بأقوال علماء السلف .

ومن خلال ذلك ناقش المؤلف شبهتين هما :

١ ـــ شبهة التعلل بحرية أداء الشعائر التي تسمح بها بعض الأنظمة العلمانية .

٢ – شبهة قصور الشريعة عن مجاراة التطور الإنساني والإحاطة بجوانب الحياة المعاصرة .

هذا ، ونسأل الله تعالى أن يجزى الشيخ «سفر»، خير الجزاء وأن يجزى كل من كان سبباً فى نشر هذه الرسالة خيراً .

والله ولىّ التوفيق وهو حسبنا
ونعم الوكيل

أولاً: تَعْرِيفُ العِلْمَانيَّة (*)

لفظ العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة (Secularism) في الإنجليزية ، أو (Secularite) بالفرنسية ، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ « العلم » ومشتقاته على الإطلاق .

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه (Science) والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة (Scientism)[1] والنسبة إلى العلم هي (Scientific) أو (Scientifique) في الفرنسية .

ثم إن زيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية ، أي في الاسم المنسوب ، وإنما جاءت سماعاً ثم كثرت في كلام المتأخرين كقولهم : « روحاني ، وجسماني ، ونوراني ... » .

والترجمة الصحيحة للكلمة هي « **اللادينية** » **أو** « **الدنيوية** » ، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب ، بل بمعنى أخص هو : **ما لا صلة له بالدين ، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد** .

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي توره المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية للكلمة :

تقول دائرة المعارف البريطانية مادة (Secularism): « هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها .

(*) البعض ينطقها بفتح العين ، نسبة إلى العالم وشاع ذلك فى عدد من المعاجم حيث أخذ بعضها عن بعض ولو صح ذلك لقيل « العالمانية » الدكتور القرضاوى .

(١) الكنز ، معجم فرنسى عربى ، جروان السابق . بيروت .

وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر ، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ (Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازاتِ الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة .

وظل الاتجاه إلى الـ (Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله ، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية »[٢].

* * *

ويقول قاموس « العالم الجديد » لـ « وبستر » ، شرحاً للمادة نفسها :

«١- الروح الدنيوية ، أو الاتجاهات الدنيوية ، ونحو ذلك . وعلى الخصوص : نظام من المبادىء والتطبيقات (Practices) يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة .

٢- الاعتقاد بأن الدين والشؤون الكنسية لادخل لها في شؤون الدولة ، وخاصة التربية العامة »[٣]

* * *

ويقول معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (Secular):

«١- دنيوي ، أو مادي ، ليس دينياً ولا روحياً : مثل التربية اللادينية ، الفن أو الموسيقى اللادينية ، السلطة اللادينية ، الحكومة المناقضة للكنيسة .

٢- الرأى الذى يقول إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية »[٤]

---

(٢) Ency Britannica Vol.lxp.19

(٣) Websters new world Dictio 128B

(٤) Oxford Advanced Learner's Dic. of current English 785

ويقول « المعجم الدولي الثالث الجديد » مادة : (Secularism) « اتجاه في الحياة أو في أى شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة ، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً ، فهي تعني مثلاً « السياسة اللادينية البحتة في الحكومة » .

« وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين »[٥].

* * *

ويقول المستشرق « آربري » في كتابه « الدين في الشرق الأوسط » عن الكلمة نفسها :

« إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال للادينية ، واللادينية صفة مميّزة لأوروبا وأمريكا ، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صبغة فلسفية أو أدبية محددة ، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية »[٦].

* * *

والتعبير الشائع في الكتب الإسلامية المعاصرة هو « فصل الدين عن الدولة » ، وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلة بالدولة ، ولو قيل إنها « فصل الدين عن الحياة » لكان أصوب ، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية هو « إقامة الحياة على غير الدين » سواء بالنسبة للأمة أو للفرد ، ثم تختلف الدول أو الأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود : فبعضها تسمح به ، كالمجتمعات

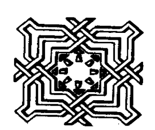
(٥) Webster's Third New International Dic. 2053

(٦) Religion in the Middle East A.J. ARBERY Vol. 2: 606-607

الديمقراطية الليبرالية ، وتسمى منهجها (العلمانية المعتدلة – Non Religious) أى أنها مجتمعات لا دينية ولكنها غير معادية للدين ، وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة – Anti Religious) ، أى المضادة للدين ، ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها .

وبدهي أنه بالنسبة للإسلام لا فرق بين المسمَّيين ؛ فكل ما ليس دينياً من المبادىء والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين ، فالإسلام واللادينية نقيضان لا يجتمعان ولا واسطة بينهما .

* * *



(أسباب العلمانية)

أولاً : الطغيان الكنسى

*** أسباب طغيان رجال الكنيسة :**

الطغيان مظهر من مظاهر الشعور بالنقص لدى النفس الطاغية ، إذ تحاول — بواسطته — ستر نقيصة داخلية مؤرّقة أو تسويغ مسلك معوج يعجز عن تبريره المنطق السليم والإقناع الهادىء .

وحين يصدر الطغيان من حاكم وثنى أو زعيم دنيوى فإنه يكون معقولاً إلى حد ما ، وإن كانت فظاعته لا يسوّغها عقل ولا ضمير ، أما حين يصدر الطغيان عن رجال يراهم الناس « قديسين » ورسل سلام وطلاب آخرة ، فذلك مما يشق على النفس احتماله ، ويبعد عن الذهن قبوله ، لا سيما إذا كانوا رجال دين يجعل المحبة شعاره والتسامح ميزته ، ويقول لأتباعه :

« من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين » [متى ٥ : ٤٠ — ٤٢].

إن هذه المفارقة لتستدعى مزيداً من الفحص والتأمل للبحث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الطغيان الأعمى ، وذلك يسلتزم النظر إلى :

ا— طبيعة وضع رجال الدين .

ب — طبيعة ظروف دينهم .

جـ — طبيعة البيئة التى مكنتهم من فرض أنفسهم عليها .

(ا) أما طبيعة وضعهم فقد كانوا سابقين لعصرهم فى الناحية التنظيمية ، إذ كانوا

* * *

مؤسسة تنظيمية مركبة تركيباً عضوياً دقيقاً من القاعدة العريضة الممتدة فى كافة الأصقاع والأقاليم إلى قمة الهرم المتمركزة فى « روما » . وهذه الميزة أكسبتهم نفوذاً مستمراً لا يقبل المنافسة وجذوراً عميقة يصعب اقتلاعها ، (ولذلك يُلاحظ أن كثيراً من الأباطرة المتمردين على الكنيسة يفشلون دائماً فى مواجهتها ويرتدون صاغرين إلى الانضواء تحت ظلها كما أن العالم الغربى المسيحى لم يستطع التخلص من قبضة الكنيسة إلا بعد الثورة الداخلية التى قادها المصلحون الكنسيون والتى أدت إلى إضعاف الهيكل التنظيمى والسلطة المركزية وتشتيت ولاء الأفراد) .

كان من الممكن أن يتمتع رجال الدين بثمرات هذا التنظيم ويسخروها لخدمة المصلحة الدينية دون أن يكون ذلك داعياً للطغيان والاستبداد ، ولكن فقدت الكنيسة النية الحسنة والإخلاص المجرد لأنها فقدت الإيمان الصحيح والعقيدة الصادقة والنفس البشرية — أينما كانت — لا تخلو من حب الطغيان إذا تهيأت لها أسبابه ، وليس كخشية الله تعالى واستشعار رقابته وضعف الإنسان إزاء قدرته حاجز لها عنه . ولما كانت الكنيسة مفلسة من ذلك فقد آل الأمر إلى أن تبدأ هيئتها التنظيمية شركة دنيوية تطمح إلى النفوذ الاجتماعى والمغانم الزائلة ثم تمكنت بوسائل شتى من أن تصبح قوة استبدادية غاشمة .

وليس ثمة شك فى أن مركزها الدينى هو الذى هيأ لها النجاح المطرد .

(ب) **طبيعة ظروف دينهم** : لقد اضطهد أتباع المسيح عليه السلام — من بعده — اضطهاداً بالغاً أدى إلى تحول الدعوة المسيحية إلى دعوة سرية ، فاختفى الكثير من دعاتها وتستروا فى أقاليم مختلفة ، وأخفوا معهم نسخ الأناجيل ، بل دونوها وكتبوها بلغاتهم الخاصة وظلوا يتناقلونها سراً ، إذ كانت تتعرض للحرق والمصادرة من قبل الروم ، وكان الداخل الجديد فى دينهم يأخذ عنهم التعاليم مشافهة بعد ترجمتها إلى لغته الدارجة ، ثم يبثها فى بنى قومه سراً ، فإذا أشكل عليهم أمر رجعوا إلى الداعية الذى يملك نسخة لأحد الأناجيل فيبين لهم رأى الإنجيل أو رأيه الخاص فى ذلك الأمر .

ولم يكن الدعاة يسمحون للأتباع بتمليك النسخ أو يطلعونهم عليها خشية على أنفسهم وعلى الكتب أيضاً ، بالإضافة إلى كون عقلية الأتباع وظروف البيئة لم تكن تؤهلهم للأخذ المباشر أو الاستنباط والاجتهاد الذاتى ويزداد الأمر صعوبة إذا كانوا يجهلون اللغة التى كتب بها الإنجيل .

كل ذلك أدى إلى انحصار المصادر الدينية للمسيحية فى أيدى فئة قليلة من الناس واقتصار حق تأويلها عليهم وحدهم ، فلما انقضت عصور الاضطهاد واعتنقت الدولة الرومانية الدين الكنسى احتفظ رجال الكنيسة بحق قراءة وشرح الكتب المقدسة ، وأيّدتهم الدولة فى ذلك بحجة جمع الرعايا على عقيدة واحدة ولإتاحة الفرصة للكنيسة للقضاء على الفرق المنشقة .

وإذا كان رجال الكنيسة قد ورثوا عن أحبار اليهود صفاتهم الممقوتة من التعصب الأعمى واتباع الهوى واحتكار الرأى فقد ظلت مصادر الدين الكنسى حكراً عليهم لاتقع عليها يد لباحث أو ناقد من غير رجال الدين ، وكان باستطاعة الكنيسة أن تفرض كل شيء باسم الإنجيل وهى آمنة من أن أحداً لن يقوم حيالها بأدنى معارضة .

وهكذا ظلت مصادر الدين النصرانى المحرّف قابعة فى خبايا الكنائس وزوايا الأديرة تؤخذ تعاليمها مشافهة من أولئك الذين يزعمون القداسة والعصمة ، وما دامت المصادر غير مكشوفة فكيف يعرف الناس مقدار صدق رجال الدين فيما يقولون عن الله ، وكيف يمكنهم مناقشة الكنيسة فيما تمليه من عقائد وتشريع ؟ لم يكن أمامهم إلا التسليم المطلق والطاعة العمياء .

وإذ قد اطمأنت الكنيسة إلى أن أحداً لن ينبس ببنت شفة فيما يمس قداستها وصوب آرائها ، فقد اشتطت وغلت فى فرض سلطانها وتعميق هيبتها ووجدت الباب مفتوحاً إلى طغيان لا يلين ولا يرحم .

(جـ) طبيعة البيئة التى شهدت هذا الطغيان ومدى تأثيرها فى بقائه واستحكامه :

كانت الغالبية العظمى من الروم وسكان مستعمراتهم من الأميين السذج الذين

ألفوا العبودية والخضوع المستمر للقوى المسيطرة ، وكانوا من الضحالة الفكرية على درجة ليست قليلة ، وكان سكان أوروبا قبائل همجية تعيش أسوأ مراحل التاريخ الأوروبى كله ، لا سيما العصور الأولى من القرون الوسطى ، التى تسمى « العصور المظلمة » واعتنق هؤلاء الديانة الرسمية للإمبراطورية وأحلوا عبادة المسيح محل عبادة الإمبراطور ، لكنهم لم يتعرضوا ليقظة إيمان حقيقى — كتلك التى هز بها الإسلام نفوس معتنقيه ورفع مستواهم الروحى والعقلى إلى آفاق عظيمة — بل ظلوا على تلك الحال من الهمجية والانحطاط حتى مطلع العصر الحديث .. لذا كان من الطبيعى للجماهير الغفيرة أن تنساق وراء عقولها السطحية وعواطفها الساذجة فتصدق كل ما تسمع وتؤمن بكل ما يقال ، وكان رجل الدين هو كل شىء بالنسبة لها فلم يكن هنالك أثر لعالم أو مؤرخ أو باحث ، بل كان الظلام المطبق يسيطر على الحياة من كافة نواحيها ، ورجل الدين هو الوحيد الذى يملك بصيصاً ضئيلاً يتمثل فى معرفته للقراءة والكتابة وكونه الموجّه الروحى للمجتمع .

ونعتقد أن بيئة هذه حالها ، وأمة هذه صفاتها ، لجديرة أن توفر للطاغية حماية كافية ومُناخاً صالحاً لفرض طغيانه فى المجال الذى يريد ، وإشباع رغبته التسلطية كما يشاء .

هذه الأوضاع والعوامل مجتمعة وهى : السلطة الكهنوتية المنظمة ، والمصادر غير المكشوفة ، والبيئة البدائية جعلت من الكنيسة مارداً جباراً وطاغوتاً جائراً يملك كل مقومات البقاء ولوازم الاستبداد ويريد أن يسيطر على كل شىء ويسيّر كل شىء وفق إرادته وهواه ..

لم تدع الكنيسة جانباً من جوانب الحياة إلا وأمسكته بيد من حديد وغلّته بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه : الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعلمية ، وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها البتة . وإن التاريخ يفيض فى الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج

حية له فى كل شأن من الشؤون ، ولنستعرض شيئاً من ذلك فى نواحى مختلفة من الحياة ..

١ - **الطغيان الدينى** : منذ ظهور ما يسمى « المسيحية الرسمية » فى مجمع نيقية ٣٢٥ م والكنيسة تمارس الطغيان الدينى والإرهاب فى أبشع صوره .

(ا) **فقد فرضت ــ بطغيانها هذا ــ عقيدة التثليث قهراً** ، وحَرَمت ولعنتْ مخالفيها ، بل سفكت دماء مَنْ ظفرت به من الموحّدين وأذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال ، ونصّبت نفسها ــ عن طريق المجامع المقدسة ــ « إلهاً » يحلّ ويحرّم ، ينسخ ويضيف ، وليس لأحد حق الاعتراض ، أو حتى إبداء الرأى كائناً من كان وإلا فالحرمان مصيره ، واللعنة عقوبته ؛ لأنه كافر « مهرطق » .

- **كان الختان واجباً فأصبح حراماً .**
- **كانت الميتة محرمة فأصبحت مباحة .**
- **كانت التماثيل شركاً ووثنية فأصبحت تعبيراً عن التقوى .**
- **كان زواج رجال الدين حلالاً فأصبح محظوراً .**
- **كان أخذ الأموال من الأتباع منكراً فأصبحت الضرائب الكنسية فرضاً .**

وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلى الحرمة أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطان أو ترى فى ذلك حرجاً .

(ب) بالإضافة إلى لغز « الثالوث » المعمّى ، أضافت الكنيسة عقائد وآراء أخرى تحكم البديهة باستحالتها ولكن لا مناص من الإيمان بها والإقرار بشرعيتها ــ هذا عند أتباعها طبعاً ــ على الصورة التى توافق هوى الكنيسة ، **كقضية الاستحالة فى العشاء الربّانى ، وعقيدة الخطيئة الموروثة**[1]**، وعقيدة**

(١) * قضية العشاء الربانى والاستحالة :
العشاء الربانى هو أهم عمل فى الطقوس المسيحية ويسمى « القربان المقدس » وهو عبارة عن « وليمة » تذكارية فى عيد الفصح ، قوامها الخبز والخمر اللذان يرمزان إلى جسد ودم المسيح ، وذلك إحياء لذكرى موته ــ بزعمهم . =

الصلب ، كل هذا يفرض على الأتباع بحجة واحدة هى أنها أسرار عليا لا يجوز الخوض فيها أو الشك فى صحتها ، (يساعدها على ذلك احتكارها للمصادر الدينية وجهل أكثر الأتباع) .

(جـ) عززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله ، مثل حق الغفران ، وحق الحرمان ، وحق التحلّة ، ولم تتردد فى استعمال هذه الحقوق واستغلالها ، فحق الغفران أدى إلى المهزلة التاريخية « **صكوك الغفران** »[1].

= وقد كان كافياً أن تقف هذه البدعة عند هذا الحد لولا أن الكنيسة — جرياً على عادتها فى التحريف وسوء الفهم والتخليط — أضافت عقيدة التحول أو الاستحالة ، وهى : وجوب الاعتقاد بأن متناولى العشاء يأكلون جسد المسيح بعينه على الحقيقة ويشربون دمه نفسه على الحقيقة أيضاً . أما كيف يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ، فإن ذلك « سر » لا يجوز لأحد أن يسأل أو يشكك فيه وإلا عوقب بالحرمان والطرد من الملكوت ! !

وظاهر أن عقيدة الاستحالة مما لايتردد العقل فى إنكاره ونبذه إذ لا يستطيع عقل سليم أن يتصور استحالة خبز وخمر إلى لحم ودم ، فى حين أن الآكلين يتذوقون طعم الخبز والخمر العادى ، ثم إن جسد المسيح واحد وموائد العشاء تعد بالآلاف سنوياً وفى أماكن متفرقة ، فكيف يتفرق من جسده ودمه عليها جميعاً ؟ !

* عقيدة الخطيئة الموروثة : إحدى التعاليم الكبرى فى المسيحية المحرفة ، وموجزها أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة (شجرة المعرفة !) فعاقبه الله بالطرد من الجنة وأسكنه التراب ، وظل الجنس البشرى يرسف فى أغلال تلك الخطيئة أحقاباً متطاولة حتى أنزل الله ابنه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) ليصلب فداء للنوع الإنسانى وليبين للناس طريق الخلاص من هذه الخطيئة ، فأصبح لزاماً على الإنسان أن يقتل نفسه لمنحها الخلاص ! ! !

(١) صكوك الغفران : من أكثر تصرفات الكنيسة شذوذاً ، وبدعها ضلالاً ، مهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيلاً ، وحماقة يترفع عن ارتكابها من لديه مسكة من عقل أو ذرة من إيمان ، تلك هى توزيع الجنة وعرضها للبيع فى مزاد علنى وكتابة وثائق للمشترين تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشترى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، =

* **وحق الحرمان** : عقوبة معنوية بالغة كانت شبحاً مخيفاً للأفراد والشعوب فى آن واحد .
— فأما الذين تعرضوا له من الأفراد فلا حصر لهم ، منهم الملوك أمثال :

= وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ، ونجاته من عذاب المطَهّر ، فإذا ما تسلم المشترى صك غفرانه ودَسَّه فى محفظته فقد أبيح له كل محظور وحلّ له كل حرام : ماذا عليه لو زنى وسرق وقتل بل لو كفر وألحد مادام الصك فى يده ؟ أليس المسيح هو الذى منحه إياه ، والمسيح هو الذى يدين ويحاسب ؟ ! أتراه متناقضاً إلى هذا الحد : يمنح الناس المغفرة ثم يحاسبهم على الذنوب ؟

وإذ قد اطمأن المشترى إلى هذه النتيجة فقد بقى لديه ما ينغص الفرحة ويكدّر الغبطة ، ذلك أن والديه وأقرباءه المساكين قد ماتوا وليس معهم صكوك ! لكن الكنيسة (الأم الرؤوم للمسيحيين) شملت الكل برحمتها وأتمت الفرحة لزبونها فأباحت له أن يشترى لمن أحب « صك غفران » وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة اسم المغفور له فى الخانة المخصصة فيغادر المطهر فوراً ويستقر فى ظلال النعيم مع المسيح والقديسيين ! ! وأما الشقى النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذى لم يستطع أن يحصل من سيده الإقطاعى (المغفور له) على ما يشترى به صكاً من قداسة الآباء ، أو المريض المقعد الذى لا يجد عملاً يخوّل له الحصول على المغفرة ، أو الفقير المعدم الذى يعجز عن استدانة دينارين يشترى بهما جنات النعيم ، هؤلاء يظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح وتعلقهم بالعذراء ! !

تلك هى المهزلة — أو جانب منها — فمن أين جاءت بها الكنيسة إذا كانت الأناجيل والرسائل خالية ، مما يدعمها أو يدل عليها ؟ !

هذا وقد كان مجمع « لاتيران ١٢١٥ م » قد فرض على كل المسيحيين أن يعترفوا أمام قسيس الأبرشية مرة كل عام لكى يستطيعوا الحصول على الغفران ، وتنفيذاً لذلك أخذ الناس يتوافدون على الأبرشيات طلباً للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات . ولكن بعد فترة من الزمن فتر ذلك التوافد وتقاعس كثيرون عن الاعتراف وازداد إلحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها فقررت اتخاذ وسيلة ناجحة لضمان استمرار ذلك فهداها تفكيرها إلى كتابة الغفرانات فى صكوك تباع على الملأ وتنص على غفران أبدى ، كما سبق بيانه .

« فردريك » و « هنرى الرابع الألمانى » و « هنرى الثانى الإنجليزى » ، ورجال الدين المخالفين من « آريوس » حتى « لوثر » ، والعلماء والباحثون المخالفون لآراء الكنيسة من « برونو » إلى « أرنست رينان » وأضرابه .

ـــ **وأما الحرمان الجماعى** فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك « يوحنا ملك الإنجليز » وبين البابا ، فحرمه البابا وحرم أمته فعطلت الكنائس من الصلاة ، ومنعت عقود الزواج ، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة ، وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب حتى عاد « يوحنا » صاغراً يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا ، ولما رأى الأخير ذُلَّهُ وصدق توبته رفع الحَرْم عنه وعن الأمة .

* **وأما حق التحلّة** فهو حق خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت مصلحتها ذلك .

(د) زيادة فى الطغيان حشدت الكنيسة جيوشاً جرّارة لمحاربة من سوّلت له نفسه مخالفة آرائها أو اعتناق ما يخالف عقيدتها ، وذلك من الطوائف النصرانية التى اختلفت مع الكنيسة فى قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة من هؤلاء « الكاثاريون » و «الوالدونيون » فى العصور الوسطى ، فقد تعرضوا للحرب من قبل الكنيسة ، لأنهم لم يتخلوا عن الدين ، بل طالبوا بحياة مسيحية حقيقية تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه ، وأنكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها .

(هـ) أنشأت الكنيسة ذلك الغول البشع والشبح المرعب الذى أطلق عليه اسم « محاكم التفتيش »[1] (وقد كان الضحية الأولى لمحاكم التفتيش هم مسلمو

(١) كانت هذه المحاكم تهاجم الوادعين فى بيوتهم ، فيحمل الرجل فى جوف الليل ، ويعتقل الأشهر بل السنين ، وهو لا يدرى ماهية التهمة التى سيتهم بها ؛ لأن خصماً له من الجيران قد أبلغ المحكمة بأنه سمعه يقول كيت وكيت عن الرؤيا أو عن الثالوث أو عن المعجزات ، ثم إذا أصر المتهم على إنكار ما نسب إليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه أشلاء شلواً بعد شلو أمام عينيه وأن تقرض لحمه بالمقراض ، وأخيراً تحرقه ! ! ! وبفضل هذا الإرهاب عاش الناس تلك الأحقاب ترتعد قلوبهم وترتجف =

الأندلس الذين أبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يتخيّله الإنسان من الهمجية والوحشية ، ثم ظلت تمارس أعمالها على مخالفى الكنيسة وإن لم يكونوا مسلمين أو متأثرين بحضارة الإسلام) انتقلت هذه المحاكم من أسبانيا إلى بقية أقاليم الكنيسة ، وكانت المحكمة الأم لها هى « المحكمة المقدسة » فى روما ، كانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتعذيب وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى وكان الزبانية يسحقون عظام الأرجل أولاً ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً حتى يهشم الجسم كله ، ويخرج من الجانب الآخر كتلة كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم ، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية أخرى ، منها آلة على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة ، يلقون الضحية فى التابوت ثم يطبقونها عليه فيتمزق جسمه إرباً إرباً ، وآلات كالكلاليب تغرز فى لسان المعذَّب ثم تشد فتقصه قطعة قطعة وتغرز فى أثداء النساء حتى تتقطع كذلك ، وصور أخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها .

٢ – الطغيان السياسى :

* كان طبيعياً أن يكون لرجال الدين سلطة سياسية فى الأمة التى تدين بدينهم ، ولكن غير الطبيعى والذى لا يصح مطلقاً أن يتحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين مع نبذهم شريعة الله وإسقاطها من الحساب ليحل محلها شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهة فى الاستبداد .. ومفاد ذلك أنه لا حرج على الكنيسة فى تقويم انحرافات الملوك وممارسة الضغوط عليهم إذا سوّلت لهم أنفسهم خرق التعاليم الدينية وتجاوز الأوامر الإلهية لتردهم إلى حظيرة الدين وتعبّدهم لله وحده ، فهذا عين مهمتها فى الحياة ، ولا ينبغى لها بحال أن تتخلى عنها ، أما أن تسهم

= أوصالهم عند ذكر الكنيسة ، بل وقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين ، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بأنه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها ، ولم يداخل الأفذاذ مثل « نيوتن وبيكون وديكارت وكانت » أن يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة ، لاسيما التثليث والخطيئة والاستحالة ..

الكنيسة فى طمس الدين وتعطيل الشريعة ثم تفرض نفسها وصية على الملوك والأمراء وترغمهم على الخضوع المذِلّ لها وتجعل معيار صلاحهم منوطاً بمقدار مايقدّمونه لها من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة لا بمقدار ما يحفظون حدود الله ويستقيمون على منهجه فذلك هو الأمر الشائن والعيب الفاضح ، ومع هذا فهو الذى حصل بالفعل للكنيسة المسيحية طيلة عصور ازدهارها .

لقد ظلت النفسية الأوروبية تعانى تمزقاً رهيباً ما تزال آثاره ممتدة بسبب الصراع المزمن الذى دار بين الكنيسة وبين الملوك للقبض على مقاليد المجتمع وكسب ولاء الأفراد .

* ولم تكن الحرب بين أتباع هؤلاء وأتباع أولئك إلا حرباً بين حزبين متناحرين لا يكاد أحدهما يتميز عن الآخر إلا فى الشعارات التى يخفى تحتها مطامعه الدنيوية البحتة .

* كان ملوك أوروبا يضيقون ذرعاً بتدخل الكنيسة المتعنّت فى كل شؤونهم ، ذلك التدخل الذى لا يجدون له مبرراً على الإطلاق ، وفى نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة إلا القداسة ومع ذلك فهم أيضا مقدسون ، إن لم يكن بأنفسهم فبنَسَبِهم .

وقد قال بعض ملوك إنجلترا وفرنسا : « ليس من الضرورى أن يخضع الملك للبابا لكى يحظى بالجنة فى الآخرة » وغاية ما كانوا يطمحون إليه هو أن تكف الكنيسة عن فرض وصايتها السياسية والدينية عليهم دون أن يفكّروا فى تقويض بنيانها أو الخروج على تعاليمها .

لكن هؤلاء كانوا فى وادٍ والكنيسة فى آخر ، إذ كانت ترى أن خضوعهم لها ليس تطوعاً بل واجباً يقتضيه مركزها الدينى وسلطانها الروحى . وقد أعلن « جريجورى السابع » أحد طواغيت الكنيسة « أن الكنيسة خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ومن حق البابا أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال » .

* وقد ظل النصر حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمى الدقيق واستبدادها المطلق ولذلك فقد كان البابوات هم

الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة كما كان فى إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة و لم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك ، ومن رفض الرضوخ فإن حكمه غير شرعى ، ومن حق البابوية أن تعلن الحرب الصليبية عليه وتحرمه وتحرم أمته .

خير **مثال** على ذلك حادثة الإمبراطور الألمانى « هنرى الرابع » المشهورة مع « جريجورى السابع » أحد بابوات الكنيسة « إذ اختلفا حول بعض المسائل ، فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه فعقد الأمراء مجمعاً قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته ، و لم يكن فى وسعه أن ينتظر وصول البابا فضرب بكبريائه عرض الحائط واستجمع شجاعته وسافر مجتازاً جبال « الألب » والشتاء على أشده ، يبتغى المثول بين يدى البابا بمرتفعات « كانوسا » فى « توسكانيا » وظل واقفاً فى الثلج فى فناء القلعة ثلاثة أيام وهو فى لباس الرهبان متدثراً بالخيش حافى القدمين عارى الرأس يحمل عكازه مظهراً كل علامات الندم وأمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا .. »

وفى بريطانيا حدثت قصة أخرى مماثلة فقد حصل نزاع بين الملك « هنرى الثانى » وبين « توماس بكت » رئيس أساقفة « كنتربرى » بسبب دستور رسمه الملك يقضى على كثير من الحصانات التى يتمتع بها رجال الدين ، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل ؛ فروّعت المسيحية وثار ثأرها على « هنرى » ودمغته بطابع الحرمان العام فاعتزل الملك فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة ووعد بأن يكفّر عن ذنبه بالطريقة التى يرتضيها ، وألغى الدستور وردّ إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها وبالرغم من ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى « كنتربري » حاجّاً نادماً ومشى الثلاثة أميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ، ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ! وطلب من الرهبان أن يضربوه

بالسياط ، وتقبّل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات فى سبيل استرضاء البابا وأتباعه ! ! .

* وكان أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة ، هو الإمبراطور « فردريك الثانى » وتعود صلابته إلى المؤثرات الإسلامية فى ثقافته وشخصيته ، فقد كان مجيداً للعربية مغرماً بحضارة الإسلام ، حتى اتهم من قبل الكنيسة باعتناق الإسلام وسمى « الزنديق الأعظم » أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم « أعجوبة العالم » وبعضهم « أول المحدَثين » . وقد اشتد النزاع بينه وبين البابا « جريجوري التاسع » بسبب رفضه القيام بحملة صليبية على الشرق ، فحرمه البابا وشهر به فى رسالة علنية عدد فيها هرطقاته وذنوبه ، فكان على « فردريك » أن يدفع التهمة عن نفسه برسالة ، وصفت بأنها : وثيقة ذات أهمية قصوى فى التاريخ ؛ لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا فى أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره ، وبين مدعيات الحكام العلمانيين ، وقد كان هذا النزاع يسرى على الدوام كالنار تحت الرماد ، ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ويتأجج هناك على صورة أخرى .
ولكن « فردريك » وضع الأمر فى عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساساً لاتحادهم بعضهم مع بعض للوقوف فى وجه الكنيسة .

على أن « فردريك الثانى » كان ظاهرة فذة لم تلبث أن تختفى تحت قهر قرارات الحرمان والسطوة الكنسية الباغية ولم يعرف التاريخ الأوروبى من يماثله إلا بعد أجيال عديدة .

٣ - **الطغيان المالى** : لا يشكك أحد فى أن المسيحية زهّدت كثيراً فى الدنيا وزخرفها ، ونظرت بعين المقت والازدراء إلى الكنوز المكدسة التى يحوزها اليهود . ولكن القرون التالية شهدت مفارقة عجيبة بين مفهوم الكنيسة عن الدنيا وبين واقعها العملى ، فقد تشددت حتى حرّمت ما أحل الله من الطيبات ، وفى الوقت ذاته كانت سيرتها الذاتية صفحة مخزية من التهالك على الدنيا وامتصاص دماء الأتباع بما لا يضارعها فيه أثرياء اليهود وكبار الملاك الإقطاعيين الذين تسميهم

الكنيسة « دنيويين » . فى الوقت الذى تفرض فيه على أتباعها الزهد والتقشف نجد حالها مغايراً لروح وصايا المسيح عليه السلام ولمقتضى ما تدعو إليه الناسَ . يقول « كرسون » : « كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والصوم والورع والرحمة ، كل ذلك خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء آخر : البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة فى مجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب » .

ويمكن تلخيص مظاهر الطغيان الكنسى فى هذا المجال المالى بما يلى :

(ا) الأملاك الإقطاعية .. أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوروبا ، فقد كان دير « فلدا » مثلاً يمتلك (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف قصر صغير ، وكان دير « سانت جول » يملك ألفين من الرقيق ، وكان أحد رجال الدين سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض .. وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة .. وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الإقطاعيين ، ويلقبون « بالدوق » و « الكونت » وغيرها من الألقاب الإقطاعية ..

وكانت أملاكها المادية وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات .

(ب) الأوقاف : كانت تملك المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية باعتبارها أوقافاً للكنيسة بدعوى أنها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية إلا أنها أسرفت فى تملك الأوقاف حتى وصلت نسبة أراضى الكنيسة فى بعض الدول إلى درجة لا تكاد تصدق ، وقد قال المصلح الكنسى « ويكلف » : إن الكنيسة تملك $\frac{1}{3}$ أراضى إنجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى ، وطالب بإلغاء هذه الأوقاف واتهم رجال الدين بأنهم أتباع قياصرة لا أتباع الله .

(جـ) العُشور : فرضت على كل أتباعها ضريبة العشور ، وبفضلها كانت تضمن حصولها على عشر ما تغله الأرض الزراعية والإقطاعيات ، وعشر ما يحصل عليه المهنيون وأرباب الحرف غير الفلاحين .

(د) ضريبة السنة الأولى : لم تشبع الأملاك والأوقاف والعشور نهم الكنيسة وشرهها ففرضت الرسوم والضرائب الأخرى ، لاسيما فى الحالات الاستثنائية ، كالحروب الصليبية والمواسم المقدسة ، فلما تولى « حنا الثانى والعشرون » جاء ببدعة (ضريبة السنة الأولى) وهى مجموعة الدخل السنوى الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية ، تدفع للكنيسة بصفة إجبارية ، وبذلك ضمنت الكنيسة مورداً مالياً جديداً .

(هـ) الهبات والعطايا التى يقدمها الأثرياء الإقطاعيون للتملق والرياء أو يهبها البعض بدافع الإحسان والصدقة ، وصحيح أن الكنيسة لم تطالبهم بذلك لكنهم لولا معرفتهم حرصها على الدنيا وإمكان استمالتها بطرق البذل والعطاء لما فعلوا ذلك كما أنهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من المغفرة عند الاحتضار على الأقل ! وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة « صكوك الغفران » إذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين .

هذا بالإضافة إلى المواسم المقدسة والمهرجانات الكنسية التى كانت تدر أموالاً طائلة على رجالها .

(و) العمل المجّانى « السُّخرة » : أرغمت الكنيسة أتباعها على العمل المجانى فى حقولها ومشروعاتها لاسيما بناء الكنائس والأضرحة وكان على الناس أن يرضخوا لأوامرها ويعملوا بالمجان لمصلحتها مدة محددة هى فى الغالب يوم واحد فى الأسبوع ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكوراً .

وهكذا ظلت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها المالية المرهقة ، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك أيضاً ويتحينون الفرصة لإعلان احتجاجهم . وقد دفعت الجرأة أحدهم « لويس التاسع ملك فرنسا » إلى أن كتب إلى البابا رسالة خطيرة (بالنسبة لعصرها) جاء فيها :

« إن الذى يشتد فى إدرار الأضراع لابد أن يصيب الدم من حلماتها »

* * *

ثانياً الصراع بين الكنيسة والعلم

* الصراع بين الدين والعلم مشكلة من أعمق وأعقد المشكلات فى التاريخ الفكرى الأوروبى إن لم تكن أعمقها قاطبة ، فمنذ عصر النهضة إلى عصرنا الحاضر ، والصراع على أشده بين مؤيدى العلم وأنصار الدين ، ورغم كل الظواهر البارزة فى الحياة الغربية التى تؤكد أن المعركة قد انتهت وأن العلم انتصر بصفة نهائية على خصمه اللدود ، فإن هناك ما يدل دلالة قوية على أن الدين — أو على الأصح بعض قضاياه الاعتقادية والسلوكية — لم تكن فى عصر من العصور أقوى حجة منها فى هذا العصر ، لا سيما بعد أن تنكّرت الثقافة الغربية لأفكار القرن التاسع عشر التى تتسم بخاصيتى « الإطلاق والعقلانية » واعتنقت نظريات القرن العشرين التى تتميز بالنسبية واللامعقول .

ولذلك فقد خيل للكثيرين أن المعركة لم ولن تنتهى وأنها باقية ما بقيت المعرفة الإنسانية ، وساعد على ترسيخ هذه الفكرة تقبل النفس الأوروبية للازدواجية فى كل شيء وهو التقبل الذى تولد من خضوعها المستمر لسلطتين متباينتين وإيمانها الطويل بفكرتين متناقضتين . وقليل منهم من فطن إلى السر الكامن وراء استمرارية المعركة دون نتيجة نهائية حاسمة . والواقع أن السبب الحقيقى فى ذلك يمكن إدراكه بسهولة لو أن الإنسان الغربى — من أى الفريقين — تخلى عن غروره وتبجحه ونظر إلى المشكلة نظرة تقييمية مجردة ، وذلك أن أى خصمين يملك كل منهما نصف الحقيقة لا يمكن أن ينتصر أحدهما على الآخر انتصاراً نهائياً . بتطبيق هذه البدهية على الصراع بين العلم والدين الأوروبيين نجد أن المواقع التى احتلها العلم من مناطق نفوذ الدين هى فى الحقيقة المواقع التى انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم ، كما أن المواقع التى صمد فيها الدين أمام الهجوم العلمى الكاسح هى المواقع التى انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والأهواء ، وحينئذ نقول مطمئنينَ : إن الحق فى كل من الطرفين هو الذى انتصر — أو سينتصر — على

الباطل فى كليهما ، وأنه لو كان الدين الأوروبى حقاً خالصاً والعلم الأوروبى يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق .

وبما أن الدين — بصبغته الإلهية النقية — لم يدخل المعركة ، فإن الأوفق أن نسمى ما حدث فى الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم ومن المؤسف حقاً أن جناية رجال الدين الأوروبيين على الحقيقة كانت أشنع وأنكى من جناية أنصار العلم عليها ، وإن كان كل منهما مسئولاً عن النتائج المؤسفة لذلك الصراع ، **ذلك أن الكنيسة ارتكبت خطأين فادحين فى آن واحد :**
أحدهما : تحريف حقائق الوحى الإلهى وخلطها بكلام البشر .
الثانى : فرض الوصاية الطاغية على ماليس داخلاً فى دائرة اختصاصها .

الخطأ الأول مسئول عن تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم المسيحية إذ جعلتها الكنيسة عقائد إلهية تدخل فى صلب الدين ، وعدّت الكفر بها كفراً بالوحى والدين .

والخطأ الثانى نشأ عن ضيق صدر الكنيسة بما يخالف تعاليمها الممزوجة وإصرارها الأعمى على التشبث بها ، فكان الامتداد الطبيعى للطغيان الدينى طغياناً فكرياً عاماً ، وحاسبت الناس ، لا على معتقدات قلوبهم فحسب ، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم . وتوهمت أن فى قدرتها أن تملك مالا تستطيع أية قوة طاغية أن تحتكره ، وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق بالتجربة المحسوسة أو النظر العقلى السليم ، وبذلك أقحمت نفسها فى متاهات كانت غنية عن عبورها وأثارت على نفسها حرباً ضروساً لا هوادة فيها ولا تمييز . وأول عمل مارسته الكنيسة فى هذا المجال هو احتكارها للعلم وهيمنتها على الفكر البشرى بأجمعه . وقد كان أصحاب الميول الفلسفية فى الدولة الرومية سواء من رجال الكنيسة أو من المسيحيين العاديين متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقى فى ميادين العلم والفلسفة لا سيما آراء أرسطو وبطليموس وقد بذلوا جهودهم فى التوفيق بين معتقداتهم الدينية وآرائهم الفلسفية ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى « الفلسفة

المسيحية » . وتبنت الكنيسة بعض النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية وأضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات فى صلب الكتب الدينية المقدسة ، و لم يبدأ عصر النهضة الأوروبية فى الظهور حتى كانت آراء أرسطو فى الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس فى أن الأرض مركز الكون ، وما أضاف إلى ذلك القديس أوغسطين ، وكليمان الإسكندرى ، وتوما الإكوينى ، أصولاً من أصول الدين المسيحى وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك .

وكانت هذه الفلسفة تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون ، وكان لديها معلومات طبية تعتمد على إقامة الطقوس لطرد الشياطين التى تجلب المرض ورسم إشارة الصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفى ! ! وبدأت أوروبا التعرف على طريق النهضة بفضل مراكز الحضارة الإسلامية فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا التى كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة فى دياجير الخرافة والجهل فاستيقظ العقل الأوروبى من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التى تجعله يكد ويعمل فى مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة . وثارت ثائرة الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين) ويعرضون عن التعاليم المقدسة فأعلنت حالة الطوارىء ضدهم وشكلت محاكم التفتيش فى كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال ، وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها ، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام .
وكان من سوء طالع الكنيسة أن النظريات الكونية سبقت النظريات الإنسانية فى الظهور ، وهى نظريات أثبتت الأيام صحتها ــ إجمالاً ــ بخلاف الأخرى ، وبذلك قدر للكنيسة أن تصطدم بالصحيح قبل الزائف ، فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها أمام الآخر .

أولاً ــ مطلع العصر الحديث والقرن السابع عشر :

* أول نظرية هزت الكنيسة هى نظرية « **كوبرنيق ١٥٤٣ الفلكية** » وقبل هذه

النظرية كانت الكنيسة تعتنق نظرية **بطليموس** التى تجعل الأرض مركز الكون وتقول إن الأجرام السماوية كافة تدور حولها . فلما ظهر (كوبرنيق) بنظريته القائلة بعكس ذلك كان جديراً بأن يقع فى قبضة محكمة التفتيش ، و لم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً ، بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل ، فلم تعط المحكمة فرصة لعقوبته إلا أن الكنيسة حرمت كتابه « حركات الأجرام السماوية » ومنعت تداوله وقالت إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل .

– وظنت أن الأمر قد انتهى ، ولكن رجلاً آخر هو « **جردانو برونو** » بعث النظرية من جديد فقبضت عليه محكمة التفتيش وأودعته السجن ست سنوات ، فلما أصر على رأيه أحرقته ١٦٠٠ م وذرت رماده فى الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر .

– وبعد موته ببضع سنوات توصل « **جاليليو** » إلى صنع « التلسكوب » فأيّد — تجريبياً — ما نادى به أسلافه نظرياً . فكان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات ، ولما خشى على حياته أن تنتهى مثل نهاية « برونو » أعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة .

ونفت كذلك الكنيسة كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر ، وراحت تعلل لنظرياتها الخاطئة باسم الدين . ومع ذلك فلم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية « كوبرنيق » وما أضاف إليها « برونو » و « جاليليو » آثار واسعة ظلت راسخة فى الفلسفة الأوروبية عامة ، فقد أفقدت الكثيرين ثقتهم فى الكنيسة وأدت إلى التشكيك فى سلامة معلوماتها ، وهو أثر له أهميته القصوى ، كما أنها أعطت الأولوية للتجربة والبحث العقلى فى الوصول إلى الحقائق .

وفى القرن السابع عشر تبلور النزاع واتخذ شكلاً جديداً ، فقد أصبح النزاع بين (تلسكوب) جاليليو وحجج الكنيسة الواهية نزاعاً بين النص الذى تعتمد عليه أدلتها وبين العقل والنظر الذى استند إليه أصحاب النظريات الجديدة .

– وثار العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحى ، ولم يجرؤ دعاة المذهب العقلى أول الأمر على إنكار الوحى كلية ، بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلاً عن الآخر .

– وأبرز المذاهب الفلسفية فى هذا العصر ، كان مذهب « **ديكارت** » وقد دعا إلى تطبيق المنهج العقلى فى الفكر والحياة واستثنى من ذلك – لسبب ما – الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة ، وكان يرى أن **ميدان** العلم الطبيعة ، **وموضوعه** استغلال القوى الطبيعية ، **وأدواته** الرياضة والتجربة ، ويختص الدين بمصائر النفس فى العالم الآخر ويعتمد على الاعتقاد والتسليم فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر .

– هذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيراً فى منهج « بيكون » التجريبى الذى قال عنه « أندرسون » :

« إن أعظم مآثر « بيكون » الفصل بين العلم البشرى والوحى الإلهى » فعند « بيكون » يمكن أن تكون أية قضية خاطئة تماماً فى نظر العقل ، ولكنها صحيحة تماماً لأنها نظر الدين .

– والواقع أن المذهب الازدواجى ليس إلا مرحلة طبيعية فى سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحى إلى الإنكار المطلق له .

وقد وجد فلاسفة آخرون معاصرون لهؤلاء لم ترق لهم هذه الفلسفة ، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً ، كان من بينهم « **سبينوزا** » وبحكم يهوديته كان أعنفهم ، إذ طبق المنهج العقلى على الكتاب المقدس نفسه ووضع الأسس التى قامت **عليها مدرسة** « **النقد التاريخى** » التى تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذى تدرس به الأسانيد التاريخية أى على أساس أنها تراث بشرى وليست وحياً إلهياً . **وبالفعل فقد حقق (سبينوزا) نتائج إيجابية :**

١ – استنتج أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام مستدلاً بما جاء فى سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه

٢ – استطاع أن يثبت أن التوراة عينت أماكن بأسماء لم توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة .
كما استطاع (**باسكال**) أن يوجه نقده لعقيدة الخطيئة قائلاً « **لاشىء يزحم العقل الإنسانى بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية وإنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة** » .
وخطا « **جون لوك** » خطوة أوسع من ديكارت إذ طالب بإخضاع الوحى للعقل عند التعارض ، ودعا إلى تطبيق مبدأ التسامح الدينى وإعطاء الحق لكل إنسان فى أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب وهو ولاشك مبدأ جديد على الحياة الأوروبية آنذاك .
على أن نقد هؤلاء الرواد لم يصل إلى إنكار الوحى الإلهى والرسالات السماوية بصراحة ، كما أنه ظل خافتاً أمام بطش محاكم التفتيش أو على الأقل أمام ضغط المجتمع الذى كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه وتراثه . وقد تعرضت كتب « ديكارت وسبينوزا و لوك » وأضرابها للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً للإيذاء والمضايقة من قبل الكنيسة إلا أن تفجّر البركان العلمى فى كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن إعطائهم ما يستحقون من الاهتمام .
كما أن النظريات الجديدة عن الكون فى هذا القرن قد غمرت الأفكار الفلسفية واستأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الأوساط الدينية والعلمية على السواء **وأعظم هذه النظريات « نظرية الجاذبية » لإسحاق نيوتن** .

فقد ولد « نيوتن » فى السنة التى توفى فيها جاليليو ١٦٤٢ ويعد عمله تتميماً لما بدأه « جاليليو » فقد مهّد اكتشاف « جاليليو » لقانون البندول ١٦٠٤ الطريق أمام النظرية القائلة « إنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها » وبذلك كان هذا الاكتشاف الضئيل بمثابة النواة للمذهب الطبيعى والنظرية الميكانيكية اللذين كان لهما صدى واسع فيما بعد .

فلما جاء نيوتن بنظرية الجاذبية مؤيدة بقانون رياضى مطرد انبهرت عقول الفئات المثقفة واتخذها أعداء الدين سلاحاً قوياً حتى سميت « الثورة النيوتونية » وأحس هؤلاء بنشوة انتصار عظيمة فقد أمكن تفسير الكون كله بهذا القانون الخارق كما تأكدت صحة نظريات (كوبرنيق وبرونو وجاليليو) وفى الوقت نفسه اهتز موقف الكنيسة وتداعت حججها الواهية أكثر من ذى قبل .

وحاربت الكنيسة هذه النظرية وشنَّعت على معتنقيها ولجأت إلى التعسف والعنف ، وهاجمت نيوتن بحجة أن نظريته تفضى إلى إنكار وجود الله بنفى العناية الإلهية من الكون . وقد ثبت أنهم كانوا على حق فى توقعهم هذا ، لكنهم كانوا مخطئين فى موقفهم من النظرية إذ ساعد هذا الموقف الخاطىء على الوصول إلى تلك النتيجة الباطلة .

وهناك نتائج إيجابية أمكن للعلماء فى القرن السابع عشر أن يكونوا منها النظرية العلمية المعادية لتعاليم الكنيسة والتى اشتقت من نظريتى (كوبرنيق – ونيوتن) هذه النتائج هى :

١ – أن تقرير الحقائق يجب أن يبنى على الملاحظة لا على الرواية غير المؤيدة (النصوص) .

٢ – أن العالم غير الحيوانى نظام متفاعل فى نفسه مستبق لنفسه وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة .

٣ – أن الأرض ليست مركز الكون وأن الإنسان ربما لا يكون الهدف من وجودها ، إذا كان لوجودها أى هدف ، وفوق ذلك أن فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية .

*** وإذا كان القرن السابع عشر هو قرن الانتفاضة العارمة على الكنيسة ومبادئها فإنه كذلك القرن الذهبى لمحاكم التفتيش فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد ، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية وظهرت الفهارس أو (القوائم البابوية) التى تحتوى على أسماء الكتب المحرمة وكان وجود شىء من هذه الكتب فى حوزة إنسان ذريعة لسوقه إلى محكمة التفتيش وتعريضه لأليم عقابها .**

وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد ، وإن كانت نافعة خيرة فقد كفّرت رئيس بلدية فى ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً ! !

واضطرب حبل الكنيسة بظهور الروح الجديدة اضطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلها فى معركة كانت فى غنى عن دخولها أمام الناس ــ لاسيما المثقفون ــ فقد اهتبلوا الفرصة وخيل إليهم أن الأقدار قد ألقت إليهم مفتاحاً سحرياً يخلصهم من سجن الكنيسة وهو مفتاح « العلم والتجربة » . كان إيمان هؤلاء بالمسيحية متغلغلاً إلى درجة يصعب معها فراقه ولكن كفرهم برجال الدين المتغطرسين كان كفراً صريحاً لاهوادة فيه . ويمكن القول : إن ما قام به علماء وفلاسفة القرن السابع عشر من هجوم على الدين ليس فى حقيقته سوى اندفاع أعمى ورد فعل غير موجه ، هدفه الانفكاك من ربقة الكنيسة والتحرر من عبوديتها ، فلم يكن همهم « إلى أين نتجه ؟ » بقدر ما كان « كيف نهرب ؟ » . وقد أسهمت التأثيرات والإيحاءات الفلسفية لنظرية « نيوتن » فى إيجاد فكر لا دينى منظم ينتهج طرائق محددة وإن كان قد ظل مشوباً بالتعصب والسلبية مندفعاً فى مهاجمة الكنيسة ومعتقداتها . ولعل نظرية « نيوتن » لم تمهد فكرياً للثورة الفرنسية فحسب ، بل قطعت نصف الطريق إلى داروين أيضاً .

ثانياً : القرن الثامن عشر :

يتميز هذا القرن بظهور روح الشك العام فى كل شىء تقريباً ، ومع ذلك فقد ظهرت فلسفات إيجابية متنوعة يدور محورها حول كلمتين هما فى الواقع صنمان ، استحدثهما الهاربون من نير الكنيسة ليحلا محل إلهها المخيف ، وهما : « **العقل والطبيعة** » .

– **أما العقل** فلم يعد مقيداً بأغلال الثنائية الديكارتية بل بدأ يبحث عن ذاته ويسلك طريقه لكى يتصرف كما لو كان إلهاً بالفعل وتعالت الأصوات منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شىء وما عداه فهو وهم وخرافة . الوحى

يخالف العقل فهو أسطورة كاذبة ، والمعجزات لاتتفق ومألوف العقل فهى خرافات بالية والفداء والصلب والرهبانية ... إلخ ، كلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل .

– **وأما صنم « الطبيعة »** فيقول « سول » : « صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه فى الطبيعة » وكتب الفكر الغربى تسمى ذلك العصر عصر « تأليه الطبيعة » أو عبادة الطبيعة ، وليست هذه العبارات مجازاً ، بل هى مستعملة على الحقيقة تماماً ، فكل صفات الله التى عرفها الناس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلٰههم الجديد ، مع فارق كبير بين الإلٰهين فى نظرهم .

– **فإلٰه الكنيسة بطاش حقود** يعذب السلالة البشرية ويقتل ابنه لأن الإنسان الأول أكل فاكهة من حديقته وهو إلٰه متعنت يضع القيود الاعتباطية على حرية الإنسان ويقيّده بالالتزامات ويفرض عليه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض .

– **أما الطبيعة فإلٰه جذاب** رحب الصدر ليس له كنيس ولا التزامات ولا يستدعى طقوساً ولا صلوات وكل ما يطالب به الإنسان أن يكون إنساناً طبيعياً يلبى مطالبه الطبيعية فى وضوح وصراحة .

وهذا الإلٰه ليس له رجال دين يستعبدون الناس لأنفسهم ولا كتاب مقدس متناقض ولا أسرار عليا مقدسة ، بل له دعاة من أمثال « روسو » و « فولتير » و « ديدرو » وله كتب علمية هى « دائرة المعارف » و « العقد الاجتماعى » أو « روح القوانين » .

والقانون الطبيعى « الجاذبية » يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضطراب فيه ولا خلل وبالمقابل جعلت الطبيعية للإنسان قانوناً طبيعياً يكفل له السعادة التامة ولكن النظم الإنسانية والأديان طمست هذا القانون فشقى الإنسان وتعذّب .
– تلك هى المبادىء الأولى للمذهب الطبيعى الذى تبلور ليصبح ديناً إنسانياً عند « كومت » فى القرن التاسع عشر.

وعنه انبثقت الماديات المتعددة التى تفسر الكون تفسيراً آلياً حسب القوانين التى سميت « قوانين الطبيعة » .

أما هنا – فى القرن الثامن عشر – فإن عبادة العقل والطبيعة هى ميزة العصر الذى يسمى « عصر التنوير » .

ويصف « برنتن » شيئاً من مظاهر الصراع بين الدين والعلم فى هذا العصر بقوله : « كان العقل للرجل العادى فى عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد ، العقل هو الذى يسوق الناس إلى فهم الطبيعة « وهذه هى كلمة السر الثانية الكبرى » وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التى قام بها فى ظل أفكار المسيحية التقليدية الخاطئة وما يخالفها فى الأخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة » .

والعقل يبين أن الرهبانية تعنى إسرافاً عظيماً فى قدرة الإنسان الإنتاجية ، وأوضح من ذلك أن العقل يبين أنه من غير الطبيعى للكائنات البشرية صحيحة البدن أن تمتنع بتاتاً عن الاتصال الجنسى ، وأن التبرير الدينى لمثل هذا السلوك غير الطبيعى كان هراء كهراء فكرة الشياطين التى تستولى على المجنون .

(هناك نقول كثيرة عن بعض الفلاسفة المعادين للكنيسة تكشف تخبطات رجال الدين ومناقضتهم عملياً لما يقولونه نظرياً ضربنا عنها صفحاً حتى لا نثقل كاهل القارىء، وفيما ذكرناه بهذا الصدد كفاية لمن أراد الهداية) .

إن شيوع المذهب العقلى الطبيعى فى عصر التنوير قد نتج عنه ـــ بالاعتماد على نظرية نيوتن ـــ مذهبان جديدان على العالم المسيحى ينأن عن التخبط والضياع :

الأول : مذهب المؤلّهة الربوبيين « دايزم » أو « المؤمنين بإله مع إنكار الوحى » وهذا المذهب يمثل فكرة انتقالية ؛ لأن الوثبة من إله مسيحى إلى عدم وجود إله كانت مستحيلة وكان من زعماء هذا المذهب « فولتير ـــ وبوب » وهم ينكرون الوحى لأن إثباته يعنى صحة تعاليم عدوهم (الكنيسة) وليس معنى إيمانهم بالله أن يسمى إيماناً حقيقياً إنما كل عمل هذا الإله ـــ فى نظرهم ـــ أنه خلق الكون ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه والتى أوضحها « نيوتن » فهو يشبه صانع

الساعة الذى يديرها ثم يدعها تتحرك من تلقاء نفسها .
الثانى : المذهب الإلحادى المادى : إن تهافت مذهب المؤلّهة وتفاهته هى التى أوحت إلى بعض معاصريهم بإنكار هذا الإله البعيد البارد الذى لا أثر له ولا ضرورة لاختراعه كما تقول حكمة « فولتير » : « إذا كان الله غير موجود فلا بد من اختراعه » ! فالطبيعة تغنى عنه والاعتراف بوجوده هو نوع من الإقرار بصحة دعاوى الكنيسة فالأولى استبعاده نهائياً من الوجود ، إرغاماً لأنف الكنيسة على الأقل .
وتطرف منهم طائفة (رأوا أن الله شر إيجابى وبخاصة إذا كان إله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) .

تلك كانت الخطوط العامة فى القرن الثامن عشر للصراع بين الكنيسة والدين ؛ على أنه ينبغى التنبيه إلى أن هذا الصراع كان مقتصراً على الفلاسفة والطبقات المثقفة ولم يتجاوز ذلك إلى القاعدة الشعبية ويصبح قضية جماهيرية إلا بعد الثورة الفرنسية التى قامت فى أواخر القرن ١٧٨٩ م وبقيامها رُسم معلم واضح من معالم التاريخى الأوروبى ، وافتتح عصر جديد من الصراع بين الدين واللادين ، وهو ما نتحدث عنه فى السبب الثالث من أسباب العلمانية فى أوروبا .

ثالثاً : الثورة الفرنسية

كان « الإقطاع » هو النظام الاجتماعى المهيمن على الحياة الأوروبية فى القرون الوسطى . وربما كان أبشع وأظلم النظم الاجتماعية فى التاريخ . ولا شك أن الظلم سمة من سمات الحكم الجاهلى لأى مجتمع فى كل زمان ومكان ، ولكن صورته فى مجتمع أوروبا الإقطاعى كانت أتم وأظهر . ففى الفترة التى كان فيها الشرق المسلم ينعم بالحياة فى ظل أفضل وأعدل مجتمع عرفه التاريخ كانت أوروبا النصرانية ترزح تحت نير هذا الظلم البغيض .

والفطرة البشرية تأبى الظلم وتنفر منه ، مهما طال خضوعها له ، ولذلك فهى تنتهز أدنى فرصة سانحة للثورة عليه وتقويض دعائمه .

وأولى محاولات الإنسان الأوروبى الانفلات من المظالم الإقطاعية ترتبط بالاحتكاك المباشر بالمسلمين عن طريق الفتوحات الإسلامية فى أوروبا ، وبلغ ذلك ذروته إبان الحروب الصليبية .

وليس غريباً أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة على الإقطاعيين فإن موقعها الجغرافى المحاذى للجزء المسلم من أوروبا « الأندلس » ثم حملاتها الصليبية المكثفة مضافاً إليها بعدها النسبى عن مركز البابوية فى روما ، كل هذا جعلها أقرب إلى روح التحرر والانطلاق .

وهكذا قامت فى فرنسا أول ثورة فلاحية فى القرن الرابع عشر للميلاد ، وهى — وإن أخفقت كالشأن فى المحاولات الأولى — فقد هيأت للأذهان لإمكان القيام بعمل ناجح مستقبلاً وأثرت فى ظهور انتفاضات مماثلة فى أنحاء القارة .

وكان من العوائق الكبرى التى خيبت جهود الثائرين أن الكنيسة « **أكبر الملاك الإقطاعيين** » وقفت ضدهم وأجهضت محاولاتهم . فالكنيسة لم تكتف بصدّ الناس عن نور الإسلام ، بل ناقضت تعاليم الإنجيل الداعية إلى المحبة والتسامح

ونافست الأمراء الإقطاعيين فى إذلال الشعوب ويأتى التبرير المسيحى لنظام الاسترقاق الإقطاعى على يد « توما الإكوينى » القديس ! ، الذى فسره بأنه « **نتيجة لخطيئة آدم** » وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بنى آدم ! وقد كانت الثورات الفلاحية على الكنيسة ليس لأنها الكنيسة بل لأنها « مالك إقطاعى » . كذلك كان اعتراضهم على البابا لا لأنه الرأس الدينى بل لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً وكان الواجب أن يكون قائدهم الروحى .

وقد حدثت بعض التحولات فى الحياة الأوروبية إلى جانب ما سبق .. فالملوك المركزيون استطاعوا تذويب البارونات فى رعاياهم وإدماج إقطاعياتهم فى الدولة وإن كان قد بقى لهم امتيازات ومخصصات كثيرة ، وتمت هذه العملية بفضل حصول الحكومات على البارود عن طريق الشرق وهو سلاح لم تصمد له قلاع البارونات طويلاً ، وأدى هذا إلى مزيد من الاستغلال للأرقاء من قبل أسيادهم كى يعوض الأسياد عن الضرائب التى فرضتها الحكومة المركزية على إقطاعياتهم ، ولم يَدُر ببال الملوك أن يفكروا فى شأن الأرقاء بل كان كل همهم أن تأتى الضريبة كاملة من أى طريق .

تحول آخر تمثل فى ظهور الحركات التى تزعمها « لوثر » و « كالفن » و « هس » وغيرهم فقد حطمت هذه الحركات الوحدة الشكلية للعالم الغربى المسيحى وأضعفت السلطة الكنسية المركزية بكثرة ما أحدثته من مذاهب وفرق لا حصر لها .

– هذا التحول بالإضافة إلى سابقه أدى إلى تخلخل المجتمع الأوروبى وتغيير بعض ملامحه الثابتة فابتدأت المدن الأوروبية فى النمو وظهرت الطبقة الوسطى « البورجوازية » فظهر منافس قوى للإقطاعيين يتمثل فى طبقة تجار المدن البورجوازيين الذين كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار . إلى جانب ذلك كانت اليقظة الفكرية التى عرضت سابقاً وكان ظهور المطابع العامل الفعال فى نشرها وتوسيع ميدانها . كل هذه التحولات آذنت بهبوب رياح التغيير على القارة وأنذرت بافتتاح عصر جديد مغاير للماضى فى قيمه وتصوراته وأوضاعه وكانت

أحوال فرنسا الثقافية والاجتماعية تؤهلها لافتتاح ذلك العصر .
وفى السنوات السابقة للثورة بلغ الفساد السياسى والتدهور الاقتصادى فى فرنسا غايته ، واعترف بذلك وزير الخزانة الملكية ١٧٨٧ وأرادت الحكومة أن تسد عجز الميزانية وذلك بإرهاق الشعب بضرائب جديدة فادحة فازدادت الأحوال سوءاً وعصفت بالبلاد موجة من الجوع ونقص المؤن .

وفى الوقت الذى عيل فيه صبر الشعب وأنهكته المجاعة والبؤس كان هناك طبقتان منغمستان فى أعطاف النعيم هما : طبقة رجال الدين وطبقة الأشراف ، بالإضافة إلى الأسرة المالكة التى كانت عبئاً ثقيلاً على المجتمع .

وكان إنقاذ الشعب يتطلب منه أن يقوم بعمل يزيح الظلم وكابوسه عن المهضومين ، فوقف الشعب بكل فئاته :
« فلاحين ، مهنيين ، قساوسة صغار » جبهة واحدة ضد الجبهة الأخرى المؤلفة من الطبقتين المحتكرتين « رجال الدين والأشراف » وانتصر الشعب على جلاديه وحصدت « المقصلة » معظم الرؤوس المترفة الطاغية .

وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية ، فقد ولدت لأول مرة فى تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب (لا باسم الله) وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة ، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعى بدلاً من قرارات الكنيسة ..
وحلَّت الثورة الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وألغت كل امتيازاتها وحوربت العقائد الدينية علناً وبشدة وأصبح رجل الدين موظفاً مدنياً لدى الحكومة .
كان لهذه النتائج أسباب وعوامل متعددة تضافرت على تحقيقها ، أهمها ثلاثة هى :
ا ـــ الفكر اللاديني .
ب ـــ وقوف الكنيسة ضد مطالب الجماهير .
جـ ـــ القوى الشيطانية الخفية .

أولاً : الفكر اللاديني (الذى طبع عصر التنوير) :

كانت مدارسه ـــ رغم تباينها ـــ تسعى إلى تقويض الدين واجتثاث مبادئه من النفوس ، وقد سلكت كل مدرسة منحىً خاصاً لتحقيق ذلك ، وأشهر هذه المدارس :

١ – مدرسة ذات طابع علمى عام : وأبرز الأمثلة عليها : الكُتَّاب الموسوعيون الذين كتبوا (دائرة المعارف) بزعامة « ديدرو » « وكانوا يناصبون الأديان عداوة عمياء » .

٢ – مدرسة ذات طابع اجتماعى وسياسى : وزعيمها « روسو » صاحب كتاب « العقد الاجتماعى » الذى أُطلق عليه « إنجيل الثورة الفرنسية » ، و « مونتسكيو » صاحب « روح القوانين » وقد استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم من هذين والغرض من فكرة (العقد الاجتماعى) هو استبدال المصلحة الاجتماعية بالأخلاق والنظم الدينية ، وإحلال عبادة (المجتمع) ممثلاً فى الوطن أو القوم محل عبادة (الله) وهو ما نادت به الثورة حرفياً .

٣ – مدرسة ذات طابع فلسفى هدام : فقد سبق الفلاسفة العقلانيون غيرهم فى المناداة بفصل الدين عن الدولة ، فعندهم يجب أن يلغى الدين ليحل محله « الدين الطبيعى أو القانون الطبيعى » ، وربما كان « سبينوزا » الفليسوف اليهودى رائد الفكرة العلمانية باعتبارها منهجاً للحياة ، واكتملت فكرة الدين الطبيعى عند « فولتير » واشتق منها فكرة « القانون الطبيعى » فهو يقول : «إن دين أهل الفكر دين رائع خال من الخرافات والأساطير المتناقضة وخال من العقائد المهينة للعقل والطبيعة لقد منع الدين الطبيعى آلاف المرات المواطنين من ارتكاب الجرائم .. أما الدين المصطنع فإنه يشجع على جميع مظاهر القسوة .. كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطريق .. ويسير كل فرد نحو الجريمة مسروراً تحت حماية قدّيسه » .

وقد كان « كانت ١٨٠٤ » معاصراً للثورة الفرنسية واشتهر بتأييدها وطور فكرة

العقد الاجتماعى ، كما أن « وليم جدوين ١٧٩٣ » دعا إلى العلمانية دعوة صريحة .

وهكذا بتأثير الفكر اللاديني جسّمت الثورة الفرنسية الفكرة الفلسفية القديمة بإقامة مجتمع يرفض القيم والأخلاق الدينية ويجعل العلاقات النفعية المحضة هى الرباط المقدس الوحيد .

ثانياً : وقوف الكنيسة ضد مطالب الجماهير :

كان من الممكن ألا تعتنق الجماهير المسيحية أفكار الكتاب العلمانيين وتتخلى عن عقائدها ، لولا الموقف الشائن الذى وقفته الكنيسة من مطالبهم المشروعة . وقد رأى الجميع ـــ مثقفون وغير مثقفين ـــ مخازى الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم الباذخ وعرف الجميع أيضاً أن القسيس دائماً حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته نظير حمايته لسيئاته هو الآخر ، مما جعل الجماهير تصب جام غضبها على الكنيسة وتصرخ خلف « ميرابو » :

« **اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس** » .

ثالثاً : القوى الشيطانية الخفية :

لم تكن الجموع الغفيرة التى اندفعت لهدم « **الباستيل** » ـــ رمز العبودية والاستبداد ـــ لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو « **الخبز** » والخبز وحده ، غير أنها لم تبدأ فى قطف أولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار « **الحرية ـــ المساواة ـــ الإخاء** » وهو شعار لُقنته تلقيناً ، وبرز شعار آخر لم يكن للرعاع أن يصنعوه وهو « **لتسقط الرجعية** » وهى كلمة ملتوية تعنى « **الدين** » .

وعندما كانت المقصلة دائبة العمل كان الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة أنهم جميعاً أعداء الشعب مع أن منهم من يعرف الشعب براءته ، بل إن الشعب ليدهش حين يرى أن من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب ، يقدم هو نفسه فى اليوم التالى إلى المقصلة باسم الشعب أيضاً ؟ ! إذن ما وراء هذه التطورات المفاجئة والتدبيرات الغريبة ؟ !

إنهم اليهود الذين يتبجحون فى غرور ويزعمون أنهم صناع الثورة الفرنسية ومدبّروها . كما جاء فى بروتوكولاتهم (١٠٣ - ١١١) :

« تذكروا الثورة الفرنسية التى نسميها « الكبرى » إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا »

« كذلك كنا قديماً أول من صاح فى الناس : الحرية ـــ المساواة ـــ الإخاء ».

وهذه دعوى مسرفة يعلم مقدار المبالغة فيها من له بصيرة بحركة سير التاريخ وسنة الله فيه . كان اليهود يعانون من المسيحيين أشد احتقار وازدراء ومع ذلك فهم يملكون تراثاً عريقاً ينفث فى نفوسهم الكبرياء الكاذبة والأثرة البغيضة ، فقد بين لهم تلمودهم أنهم متميزون على بقية الخلق وأنهم شعب الله المختار ، ومن عداهم فحيوانات ! ! فنظروا إلى غيرهم على أنهم كفار ووثنيون ويجب القضاء عليهم . ولن يتم لهم ذلك إلا بالقضاء على أديانهم وتدمير أخلاقهم . إلى جانب ذلك كانت العداوة التقليدية قائمة بينهم وبين النصارى ، فهم يعيشون أقلية محتقرة فى ظل فرنسا الكاثوليكية ، واليهود يريدون تحقيق أحلام التلمود ليسيطروا على الأميين (غير اليهود) وهذا لن يتم طالما فى الكنيسة عرق ينبض فكانوا يتحينون الفرصة للإجهاز عليها . فلما نزلت الضائقة الاقتصادية واندلعت الثورة على الكنيسة وجد اليهود فرصتهم ـــ ولم يصنعوها كما زعموا ـــ فبدأوا يتغلغلون فى منظمات الثورة المختلفة – تساندهم أموالهم المحصّلة من الربا – كالجمعية التأسيسية ونادى اليعاقبة وبلدية باريس ونفثوا شعاراتهم التى رددتها الجماهير ببلاهة ، لاسيما شعار (الحرية ـــ الإخاء ـــ المساواة) ، فإن لهذا الشعار مفهوما خاصاً عند اليهود **إذ يقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة التى تحول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها . وبالإخاء والمساواة : كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التى تحول بينهم وبين الانسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم كى تزول منهم وصمة الاحتقار والمهانة . وهكذا نجحوا فى تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه وجعلوا**

لفظة (الدين) عند الشعوب الأوروبية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد .

كانت الثورة الفرنسية إذاً فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوروبا ، إذ توالت بعدها الثورات كالبراكين ، وعرفت أوروبا ربما لأول مرة شيئاً اسمه « حقوق الإنسان » ، وكان نجاح هذه الثورة يعنى انهيار النظام الإقطاعى وانهيار نفوذ الكنيسة ، ولذا **فإن من الطبيعى لتغيّر عميق كهذا أن يصحبه فراغ هائل فى المعتقدات والقيم . فإذا علمنا أن هناك من يستغل هذا الفراغ لتحطيم إنسانية الإنسان وتدمير قيمه أدركنا المغزى الحقيقى للحرية التى نادت بها تلك الثورات .**

وقد شهدت أوروبا فى الفترة التالية مالا يحصى من الاتجاهات الفكرية والاجتماعية الحائرة كما شهدت حروباً طاحنة غيّرت خريطة أوروبا ، وحلّت الفاجعة الكبرى بالدين والأخلاق والتقاليد التى أصبحت ينظر إليها وكأنها قطعة متحجرة من الماضى البغيض .

رابعاً : نظرية التطور

قبل أن تبصر نظرية التطور النور ، كان الإيمان المسيحى والأخلاق المسيحية قد تعرضا لضربات قاسية وهزات عنيفة ، لكن ذلك لم يسمح لأى مفترض أو متكهّن بالتنبؤ بانهيار كامل للمسيحية قبل قرون عدة على الأقل ، فقد بقيت رغم الطعنات النافذة كياناً قائماً تدعمه عواطف الكثرة من الناس وتسانده موروثات عميقة الجذور من القيم والمثل والتقاليد .

نعم ، لقد تغيرت نظرة الناس إلى المسيحية ، لكنها لم تتغير بالنسبة للتصور الدينى فى حد ذاته فقد بقي هذا التصور سائغاً بل متأصلاً بدليل الجهد الذى بذله الفلاسفة لاصطناع دين طبيعى أو دين إنسانى كما يدعون . وتغيرت نظرة الإنسان إلى الكون وحجمه فيه لكن نظرته لم تتغير بالنسبة لإنسانيته وتفرده

بوصفه كائناً روحياً متفوقاً على الموجودات إن لم يكن بجسمه فبعقله وروحه . وتغيرت نظرة الناس إلى حركة التاريخ وخط سير الحياة ولكن لم يكن فى وسع أحد أن يعتقد أو يجاهر بأنه لا توجد قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة ولا تقاليد ثابتة .

ولقد صدق الناس الكثير مما قاله أعداء الدين « كفولتير » و « هيوم » لكنهم إلى الآن يعدون مثل هؤلاء الناس ملاحدة ونشر دارون ١٨٥٩ كتابه « أصل الأنواع » فأحدث ضجة لم يحدثها أى مؤلَّف آخر فى التاريخ الأوروبى كله ، وكان له من الآثار فى المجالات الفكرية والعملية ما لم يكن فى الحسبان .

وبإيجاز يمكن القول إن نظرية « دارون » تفترض تطور الحياة فى الكائنات العضوية من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد ، وتدرجها من الأحط إلى الأرقى ، وأن الفروق الخلقية داخل النوع الواحد تنتج أنواعاً جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة ، ولذلك يفترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة وحسب قانون « الانتقاء الطبيعى وبقاء الأنسب » نمت الأنواع التى استطاعت أن تتكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة وتدرجت فى سلم الرقى فى حين هلكت الأنواع التى لم يحالفها الحظ فى ذلك ، وعلة ذلك أن الطبيعة حسب تعبير داروين — وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة تستطيع بوساطتها أن تتواءم مع الظروف الطارئة ، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعى مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ونوع أرقى وهو الإنسان أما البعض الآخر فقد حرمته الطبيعة من ذلك فتعثر وسقط ، والطبيعة إذ تهب هذا وتحرم ذاك لا تنتهج خطة مرسومة ، بل تخبط خبط عشواء — على حد قوله — كما أن خط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة منطقية مطردة ! ! وليس الجديد فى هذا هو فكرة التطور ذاتها وإنما هو القانون الذى تسير عليه عملية التطور ، بغض النظر عن قيمته العلمية .

يقول « آرثركيث » : « إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين — وستظل كذلك — والسبب الوحيد فى أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الإطلاق » .
ويقول « واطسن » : « إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء ، لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو الاستدلال المنطقى ولكن لأن فكرة الخلق المباشر بعيدة عن التصور » .

* **آثار الداروينية :**

أولاً : انهيار العقيدة الدينية :

وجد الإلحاد فى أوروبا قبل دارون إذ أباحته الثورة الفرنسية تحت شعار « حرية الاعتقاد » وقدمت الميكانيكية النيوتونية للملاحدة خدمة كبيرة ، لكن الإلحاد ظل حتى ١٨٥٩ قضية فلسفية محدودة النطاق . وظلت المسيحية محتفظة بمركز قوى ليس فى الطبقات الدنيا من الشعب فحسب بل حتى فى الجامعات والأكاديميات العلمية التى كانت فى الغالب هيئات دينية أو خاضعة لنفوذ الكنيسة .
وبعد ١٨٥٩ أصيب العالم بنقص حقيقى فى الإيمان بسبب ما أشاعه أعداء الدين من تفسيرات باطلة لنظرية التطور ، واشتط أصحاب النظرية وتطرفوا إلى حد إنكار التصور الدينى جملة وإعلان إلحادهم الصريح كما تطرفت الكنيسة وأشياعها فأعلنت كفر وهرطقة كل من لم يكن فى جانبها .
وانتهت المعركة إلى نتيجة مفزعة فقد تزلزلت العقائد وانتشر الإلحاد وشاع بطريقة غريبة شاذة .

وهناك عاملان تضافرا لإعطاء نظرية التطور هذا الحجم الكبير ، وهما :

(١) **الظروف التاريخية السيئة :** فقد ولدت النظرية فى عصر كان فيه الصراع بين العلم والدين على أشده ، وكانت الثورة الصناعية قد أخذت تطمس ملامح المجتمع الأوروبى وتصبغه بصبغة متحللة من الدين والأخلاق ، وكان الأوروبى — فى كل مكان — يتحفز للأخذ بثأره من رجال الكنيسة الذين أذاقوه ألوان الذل

والاستعباد فكان ظهور النظرية فتحاً جديداً بالنسبة له ، وصحيح أن الجماهير وقفت مع الكنيسة فى بادىء الأمر ولكن تحولت بعد ذلك إلى دارون رغم أنه سلبها إنسانيتها وردها إلى أصل حيوانى وأخذت تشمت فى الكنيسة ووجدت الفرصة سانحة للتخلص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض هذا بالإضافة إلى طبيعة إيمان المسيحى ذاته فهو إيمان عاطفى لايقوم على الاقتناع العقلى ومن ثم فلا غضاضة أن يضحى بعقيدته الهشة فى سبيل نجاته من قبضة الكنيسة الجائرة .

(٢) الاستغلال البشع للنظرية من قبل القوى الشيطانية الهدامة : الجميع يعلم أن اليهود يخططون للقضاء على البشرية و(استحمارها) من طريق القضاء على دينها وأخلاقها وتقاليدها وما من شك فى أن نظرية دارون سلاح فتاك لم يكن اليهود ليحلموا به ولكنهم يقولون فى بروتوكولاتهم (رقم ٢) : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى سيكون واضحاً لنا على التأكيد » .

ومن ثم راحوا يروّجون لها ويرفعون من ذكر دارون ويهاجمون معارضى النظرية والاستقبال الحافل والغريب بالنظرية والذى جعل الناس يتلقفون النظرية لا بوصفها نظرية علمية بل كما لو كانت ديناً جديداً بالفعل ، وطرحت كبديل للمسيحية .

– وهكذا عمت موجة الإلحاد ــ نتيجة لهذين العاملين ــ فى المجتمعات الغربية وانتقلت منها إلى بقاع العالم وسيطرة الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة ، وتخلت جموع غفيرة عن إيمانها بالله تخلياً كاملاً أو شبه كامل وطغت على الحياة الأوروبية فوضى عقائدية غريبة .

ثانياً : نفى فكرة الغاية والقصد :

من الحقائق التى تتفق عليها الأديان ، وتتضافر على الإيمان بها العقول والفطر السليمة أن للوجود الإنسانى على الأرض غاية مقصودة أرادها الخالق سبحانه واقتضتها حكمته النافذة ، ومهما اختلفت الآراء والمذاهب فى ماهية هذه الغاية

وتصورها فإن حقيقتها العامة لا تقبل الجدل .

وقد كان الفلاسفة يجهدون أنفسهم فى البحث حول الغاية من خلق الإنسان ووظيفته فى الوجود دون أن يهتموا كثيراً فى كيفية الخلق وعللها المباشرة . فلما ظهرت نظرية التطور ونادت بأن الإنسان وليد سلسلة طويلة من التطورات المتعاقبة بدأت من جرثومة فى مستنقع آسن وانتهت فى خط سيرها المتخبط إلى صورته الراهنة لم يعد هناك ما يدعو إلى التفكير فى الغاية من خلق الإنسان .

وإذا كانت الطبيعة — كما قال داروين — تخبط خبط عشواء ، فإنه من العبث أن نبحث عن غاية مرسومة وهدف مقصود لعملية الخلق والوجود الإنسانى . وكان ظهور هذه النظرية فى عصر ازدهار النظرية الميكانيكية أحد العوامل المشجعة على قبولها ، فكلا النظريتين ترجع الحوادث الكونية كلها إلى قوانين الطبيعة العمياء فراراً من نسبتها إلى إله الكنيسة .
وقد نجم عن ذلك أن أهملت العلوم الغربية بجملتها فكرة « الغائية » بحجة أنها لا تهم الباحث العلمى ولا تقع فى دائرة عمله وتحللت علوم الطب والفلك والجيولوجيا والأحياء وسائر العلوم من التأثيرات الدينية . وأدى الإيمان بهذه الفكرة إلى اعتناق الفكرة الهزيلة « المصادفة » وهى فكرة لا قيمة لها ولا وزن فى حساب العلم .

وإنه لمن المدهش حقاً أن يرى الإنسان الكثير ممن يسمون علماء يعتقدون أن الكون بدقته المذهلة وعظمته الهائلة وجد صدفة واعتباطاً ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾ (ص : ٢٧) .
إذا كان هذا فى الناحية النظرية ، فإن الناحية العملية تثبت أن النتائج كانت مروّعة إذ تزعزعت قيمة الحياة لدى الناس واستبد بالكثيرين شعور يائس بالقنوط والضياع وظهرت أجيال حائرة لا تطمح إلى غاية ولا تفكر فى هدف وخيم الخواء الروحى على المثقفين بصفة خاصة وأصبح شغلهم الشاغل هو البحث عن الذات المفقودة .

وذلك هو المناخ الخصب الذى استغله اليهود لبذر نظرياتهم الهدامة ، فجاء « فرويد » بالتحليل النفسى و « برجسون » بالروحية و « سارتر » بالوجودية .

ثالثاً : حيوانية الإنسان وماديته : لقد صدم الضمير الأوروبى حين جاءه « كوبرنيق » بنظريته الفلكية القائلة بأن الأرض ليست مركز الكون ، ثم جاء « دارون » وصدمه الصدمة الكبرى فى كرامته زاعماً أن الإنسان حيوان وجعل بينه وبين القردة نسباً ، بل زعم أن الجد الحقيقى للإنسان هو جرثومة صغيرة راكدة فى مستنقع آسن قبل ملايين السنين . وليس الإيحاء بحيوانية الإنسان هو الأثر الوحيد ــ لنظرية داروين ــ الذى حط من قدره وكرامته بل اقترن به إيحاء آخر هو الإيحاء « بمادية الإنسان » أى خضوعه للقوانين المادية التى تفرض عليه ما تفرضه على المادة الجامدة (من حيث التطور) .

وقد كان لهذين الإيحاءين أعظم الأثر فى دراسات اجتماعية ونفسية تناولت موضوع الإنسان فرداً أو جزءاً من مجموع فقد اعتمدت الشيوعية على **حيوانية الإنسان** ، فاليهودى ماركس استمد منها ماظهر جلياً فى بيانه الشيوعى إذ طالب بالغذاء والسكن والجنس واستمد من ماديته التى أوحت بها جبرية التطور التفسير المادى للتاريخ والجبرية الاقتصادية .

واليهودى (دوركايم) جمع بين حيوانية الإنسان وماديته فى نظريته « العقل الجمعى » التى تقول بأن الإنسان حيوان خاضع لقهر اجتماعى يفرضه عليه العقل الجمعى للقطع البشرى ويستمد شواهده المؤيدة من عالم الحيوان ومجتمع الحيوان واليهودى « فرويد » استمد من حيوانية الإنسان نظريته فى تفسير السلوك الإنسانى من الولادة حتى الوفاة تفسيراً حيوانياً بشعاً ، فهو يرى أن الدافع الجنسى هو دافعه الوحيد فى كل أموره ، من رضاعته من ثدى أمه إلى تعامله مع الآخرين ، فالإنسان عنده حيوان جنسى ، وراء كل حركة منه شهوة جنسية ظاهرة أو خفية . واستمد من ماديته « جبرية نفسية » تجعل الإنسان خاضعاً لغريزته مسيراً بها بلا اختيار منه ، فهو لا يملك إلا الانصياع لأوامرها و إلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب ! ! !

رابعاً ـــ فكرة التطور المطلق :

كانت أوروبا مستغرقة فى سكون مطبق وجمود عام أوحى إلى العقلية الأوروبية الخاملة ـــ آنذاك ـــ بفكرة الثبات المطلق فى كل شىء ، وأسهمت الكنيسة ـــ بطقوسها الجامدة ووقوفها ضد كل جديد ـــ فى ترسيخ هذه الفكرة وتعميقها . وأول هزة تعرضت لها هذه الفكرة كانت عقب نظرية « كوبرنيق » ـــ من غير قصد ـــ فدوران الأرض الذى نادت به نظريته يناقض المسلمة البدهية فى نظر عصره وهى أنها ثابتة وما عليها ثابت ، ثم إن التقدم فى الكشف والبحث الذى اقتبس من الشرق المتحضر حيويته ونشاطه كان عاملاً مؤثراً فى إضعاف الإيمان بهذه الفكرة .

وظهرت فكرة التطور العقلى لدى (أوجست كونت) من الخرافة إلى الدين إلى الوضعية ، وكذلك ظهرت لدى (هوبز) الذى يرى أن المجتمع الإنسانى تطور من الوحشية الغابية إلى الحالة الاجتماعية ، وكذلك (روسو) الذى قال بتطور المجتمع من الحالة الطبيعية إلى الحالة الفوضوية مما استوجب وجود (عقد اجتماعى) بين الأفراد .

لكن هذه النظرياته لم تكن من القوة والتعميم بحيث تزلزل فكرة الثبات كلية وإن كان لها الفضل فى التمهيد لذلك .
وتمت هذه الزلزلة على يد (دارون) وبعده انتقلت أوروبا من الاعتقاد فى الثبات المطلق إلى الاعتقاد فى التطور المطلق فعن طريق عنصرى النظرية ـــ **الحتمية والاضطراب** ـــ أوحت النظرية بتطور حتمى مطلق لاغاية له ولا حدود .

* فالحتمية تجعل الإيمان بثبات أى شىء وإن كان الدين أو القيم أو التقاليد جموداً ورجعية وكل محاولة للثبات على شىء من ذلك هى معركة خاسرة مع القدر الذى لايقهر . واضطراب خط التطور يلغى كل المعايير الثابتة المتعارف عليها للحكم على الأشياء ويستبدل بها معياراً واحداً لا ميزة له فى ذاته إلا عدم قبوله صفة التطور وهو « الزمان » فكل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره

مادام تالياً له فى الوجود الزمنى .

وهكذا آمنت أوروبا بالتطور المطلق وحسبت كل تغير ـــ وإن كان انتكاسة وانحطاطاً ـــ تطوراً وتقدماً .

وإن كان من الحق أن نقول إن هناك علماء عارضوا فكرة التطور المطلق ، ولكنهم قوبلوا بالنقد العاصف والاستنكار الشديد بحجة أنهم رجعيون متخلفون يعرقلون مسيرة التطور الحضارى .

وهكذا رسخت فكرة التطور المطلق فى كل فرع من فروع المعرفة النظرية وفى كل حقل من حقول التطبيق الواقعى وأصبحت السمة الظاهرة للحضارة المعاصرة .

* تلك كانت أسباب العلمانية وقد اختصرتها جهدى محاولاً عدم الإخلال ، ومن أراد الاستيضاح فعليه بالرجوع إلى الكتاب (العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة) تأليف سفر عبد الرحمن الحوالى .

فصل

هَل لِلْعِلمَانية في العَالَم الإسْلامي مُبَرّر ؟

العلمانية فكرة مستوردة لا يشك في ذلك أعداؤها ولا يماري فيه أحد من دعاتها ومعنى ذلك بداهة أنها ليست من صميم الإسلام ولا هي حتى من إنتاج المنتسبين إليه ، ولذلك وجب — قبل كل شيء — أن ننظر إليها نظرتنا إلى أية بضاعة مستوردة من جهة حاجتنا إليها أو عدمها ، فما لم نكن بحاجة إليه فإن المفروض فينا باعتبارنا عقلاء أن نميّز ونختار ونأخذ أخذ الواعي الحذر .

وبتطبيق هذه البدهية على العلمانية نجد أنها بضاعة نحن في غنى تام عنها ، أي إن من الحمق والغباء أن نستجلبها حتى وإن كانت نافعة ومجدية بالنسبة للمجتمعات والظروف التي أنتجتها ، فكيف إذا كانت ما دخلت مجالاً من مجالات الحياة إلا وثمرتها الشقاء المطبق والضياع المرير ؟ .

ثم إنه يجب سلفاً ألا ننسى أننا لسنا مخيرين أصلاً في قبول هذه الفكرة أو رفضها ، وأننا — حتى ونحن نناقشها على ضوء هذه البدهيات — إنما نناقشها من قبيل الفرض الجدلي والنزول إلى مستوى الخصم ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** ﴾ [سبأ : ٢٤] وإلا فإن ما سيأتى تقريره من حكم العلمانية في دين الله لا يدع لنا فرصة للتفكير أو التردد .

وبالرغم من ذلك نقول : هل للعلمانية فى العالم الإسلامى مبرر ؟ هل لها مايسوغها من الأسباب سواءً أكان في العقيدة أم الشريعة ، في التصور أم في التطبيق ؟ إن العلمانية رد فعل خاطىء لدين محرف وأوضاع خاطئة كذلك ، وإنها نبات نكد خرج من تربة خبيثة ونتاج سيىء لظروف غير طبيعية .

فأوروبا نُكبت بالكنيسة وديانتها المحرفة وطغيانها الأعمى وسارت أحقاباً من الدهر تتعثر في ركابها ثم انتفضت عليها وتمردت على سلطتها ، فانتقلت إلى انحراف آخر وسارت في خط مضاد إلا أنه أعظم خطراً وأسوأ مصيراً .

انتقلت من جاهلية تلبس مسوح الدين إلى جاهلية ترتدي مسوح التقدم والتطور ، وهربت من طغيان رجال الدين والإقطاعيين فوقعت في قبضة الرأسماليين وأعضاء الحزب الشيوعي .

وذلك الانتقال وهذا الهروب دفعت إليه ظروف تاريخية بيئية نابعة من واقع الحياة الأوروبية خاصة ، مع العلم بأنه لم يكن ضرورياً أن يتخذ رد الفعل الأوروبي تلك الصفة بعينها وأن مجيئه على هذا الشكل ليس حتمياً .

أي إنه لم يكن حتماً على مجتمع ابتلى بدين محرف أن يخرج عنه ليكون مجتمعاً لا دينياً بل الافتراض الصحيح هو أن يبحث عن الدين الصحيح .

فإذا وجدنا مجتمعاً آخر يختلف في ظروفه عن ذلك المجتمع ومع ذلك يصر على أن ينتهج اللادينية ويتصور أنها حتم وضرورة فماذا نحكم عليه ؟ ... وكيف يكون الحكم أيضاً إذا كان هذا المجتمع الآخر يملك الدين الصحيح ؟ **إن أول ما نلاحظه في دين أوروبا هو التحريف في العقيدة والشريعة : عقيدة التثليث المستغلقة المضطربة والأناجيل المحرفة المتضاربة ثم النظرة القاصرة التي فصلت الدين عن الدولة والحياة وحصرته في الأديرة والكنائس .**

فهل ذلك أو شيء منه في الإسلام ؟

* * *

أولاً التحريف فى العقيدة

لنبدأ **بالتثليث** أي ما يتصل بعقيدة الألوهية :

وبدون أدنى مبالغة نقول : إنه ليس من دين ولا نحلة على وجه الأرض أيسر فهماً وأعظم اتساقاً مع الفطرة وموافقة للعقل من العقيدة الإسلامية بل هي الفطرة

ذاتها التي يعد ما عداها انحرافاً وضلالاً والتي لا تتغير بحال :

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [الروم : ٣٠]

هذه العقيدة الفطرية تشرحها سورة واحدة صغيرة قلّ أن يوجد مسلم لايستظهرها ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ [سورة الإخلاص : ٤:١] وهي السورة التي نزلت جواباً إلهياً للمشركين عندما سألوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يصف لهم ربه[١].

هكذا وحدانية سهلة سلسة تتشربها النفس البشرية بطريقة تلقائية دون تعقيد أو تكلف ، فلا أقانيم ولا أبوة وبنوة ولا تشبيه ومكافأة .

وهذه الحقيقة هي التي تجذب اهتمام وتركيز دارسي الإسلام من أول لحظة وتدفع مَنْ كُتبت له الهداية منهم إلى نفض ما علق بفطرته من ركام ، والدخول في دين الله بكل طمأنينة ؛ ذلك أن « أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية هو الاستقامة والبساطة والوضوح ، .... وهذه السمة التي تجتذب الأفراد الذين يدخلون في هذا الدين من الأوروبيين والأميركيين المعاصرين فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين وهي ذاتها السمة التي تجتذب البدائيين في إفريقيا وآسيا في القديم والحديث ؛ لأنها سمة الفطرة التى يشترك فيها الناسُ أجمعين متحضرين وبدائيين »[٢] .

ويأتي مصداق ذلك على لسان أحد الداخلين في الإسلام من النصارى :

« بدأت أدرس الأديان بصفة عامة والإسلام على وجه الخصوص ، فأيقنت

---

(١) انظر لباب النقول المطبوع مع الجلالين : ٣٨٤ وانظر أسباب النزول للنيسابورى الواحدى ٣٤٥

(٢) خصائص التصور الإسلامى : ٢٢٨

في غضون دراستي أن دنيا تفكيري وإحساسي أقرب للإسلام منها للمسيحية وبالتدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع **فطرتي البشرية** وأستطيع هنا أن أضرب مثالاً نظرياً وآخر عملياً :

« عندما درست وجهة النظر الإسلامية حول النبي عيسى عليه السلام عرفت أنني لم يحدث قط أن آمنت بأن عيسى عليه السلام ابن الله ، كما عرفت فيما بعد من أستاذ بروتستانتي أن عدداً كبيراً من المسيحيين ــ حوالي ٨٠٪ منهم ــ أقرب إلى الإسلام منه إلى المسيحية في هذه الناحية على الأقل من عقيدتهم أما من الناحية العملية فحتى قبل إسلامي كنت أنفرمن الخمور والرقص وما شابه ذلك من الأمور التي عرفت فيما بعد أنها محرمة في الإسلام وهكذا كان الإسلام بالنسبة لي كعملية اكتشافي لفطرتي ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[3] [الروم : ٣٠]

والعجيب في قضية التثليث أن تنسب أوروبا الفضل في إنكارها إلى فلاسفة عصر التنوير (ق ١٨) من أمثال « فولتير » «وتوم بين » ، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لأن عقلية جبارة كتلك التي يتمتع بها « ديكارت » لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمة واحدة .

هذا في حين أن الإسلام ــ دين الله الحق ــ سبق إلى نقض هذه العقيدة وإبطالها ليس من خلال تنفيره العام من الشرك وإنكاره المطلق فحسب بل أفرد الحديث عنها استقلالاً وفصّله من وجوه منوّهاً بأنها عقيدة وثنية قديمة وهي الحقيقة التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد ظهور علم مقارنة الأديان الذي يعد من أحدث علومها النظرية . قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** »[4]
[التوبة : ٣٠]

---

(٣) رجال ونساء أسلموا ، عرفات كامل العشي : ١/٢٤ــ٢٥ .
(٤) انظر : في ظلال القرآن : ٤/٢٠٠ .

أما بالنسبة للأناجيل فإن سلامة القرآن الكريم من التحريف وحفظه بنصه الكامل حفظاً أبدياً لأمر حسي مقطوع به لا يماري فيه إلا مكابر ينكر عقله وحسه قبل أن ينكره ففي إمكان الشاك في حقيقة ذلك أن يأخذ نسخة مطبوعة من القرآن الكريم من « ماليزيا » مثلاً وأخرى من « مصر » وثالثة من « أميركا » ثم يقارن بينها وبعد أن يتضح له أنها متطابقة تماماً — وهو ما لابد منه — فليقارن إحداها بأية نسخة مخطوطة منه سواء في إحدى مكتبات الهند أو في أحد متاحف أوروبا ليجد الحقيقة عينها تتكرر لديه[٥].

وقديماً يذكر الإمام « البيهقي » رحمه الله قصة واقعية مروية عن القاضى « يحيى بن أكثم » قال : « دخل يهودي على « المأمون » فتكلم فأحسن الكلام فدعاه « المأمون » إلى الإسلام فأبى فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً فتكلم فأحسن الكلام فقال له « المأمون » : ما كان سبب إسلامك ؟

قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها « البِيَعة » فاشتريت مني . وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة وأدخلتها الورّاقين فتصفّحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي .

قال « يحيى بن أكثم »: فحججت تلك السنة فلقيت « سفيان بن عيينة » فذكرت له الحديث . فقال : مصداق هذا في كتاب الله تعالى . قلت: في أي موضع ؟ قال : قال الله تعالى في التوراة والإنجيل : ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ [المائدة : ٤٤] فجعل حفظه إليهم فضاع . وقال ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] فحفظه فلم يضع[٦].

---

(٥) لا يحتج أحد بالطبعات التى تصدرها أحيانا هيئات معادية للإسلام فهى تفتضح بمجرد صدورها .

(٦) الخصائص الكبرى : ١٢٨/٣ . البِيَعة : مكان عبادة اليهود

وهذه الحقيقة الكبرى تقف كالصخرة الصماء أمام جهود المستشرقين وفلول الحاقدين على الإسلام قديماً وحديثاً لم يستطيعوا منها نيلاً ولا تحويلاً .

ثانياً: التحريف في الشريعة :

* **أما تحريف الشريعة** بفصلها عن شؤون الحياة وقصرها على طائفة مخصوصة — بل على فترات محدودة من حياة تلك الطائفة — فقد حفظ الله تعالى دينه الحق من ذلك أيضاً . ولم تمر على الإسلام تلك الظروف التاريخية السيئة التي حالت دون تطبيق شريعة عيسى عليه السلام .

فالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى كانت للإسلام دولة يقوم كل جليل من أمرها ودقيق على هديه الإلهي ، دولة فريدة في عالم الأرض كله واستمرت دولة الإسلام تنمو وتتسع وانضوى تحت حكم الله شعوب وأمم العالم المتحضر من بلاد الصين إلى المحيط الأطلسي ولم يبق خارجاً عن دائرته إلا أوروبا التي كانت مطمورة في ظلمات بعضها فوق بعض والقبائل الوحشية في أواسط أفريقية وشمال وجنوب شرق آسيا .

وهكذا لم تتعرض الشريعة الإسلامية لاضطهاد يذهب معالمها ويطمس حقائقها ويجعل تطبيقها في واقع الحياة أمراً مستحيلاً كما حدث للنصرانية .

هذا بالنسبة للعوامل الخارجية أما العوامل الذاتية فإن الشريعة الإسلامية سلمت من عبث العابثين وتحريف المبطلين . فعلى الرغم من كثرة الفرق الهدامة والطوائف الموتورة فإنها جميعاً عجزت عن تحقيق أهدافها وغمرها التاريخ في طياته والشريعة غضة طرية كأنما أنزلت اليوم .

– أما القرآن فأمر حفظه — كما سبق — أشهر من أن يدور حوله نقاش .

– وأما السنة فسلامتها وحفظها معجزة من معجزات هذا الدين الخالدة فقد قيّض الله لها رجالاً يستظهرون مئات الألوف من الأسانيد والأحاديث غَيْباً ، لو أن أحدهم شك في كلمة بل في حرف لذكر ذلك في روايته أداء للأمانة وتبرئة

للذمة . واستنبط المسلمون علماً لا نظير له بين الأمم السابقة واللاحقة وهو علم « **مصطلح الحديث** » الذى وضعت له أصول وقواعد يذهل لها الباحثون المعاصرون وما يزال في الأمة علماء معاصرون محتفظون بسلسلة السند حتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع أن الكتب المدونة تملأ الآفاق .

ونتيجة للضبط المتقن والدقة البالغة كانت الأمة واثقة كل الثقة في قدرة علمائها على كشف كل مدسوس على السنة ، فقد جيء إلى « الرشيد » بزنديق فأمر بقتله فقال : يا أمير المؤمنين أين أنت عن أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام . ما قال النبي منها حرفاً واحداً ؟ .

فقال « الرشيد » : أين أنت يا زنديق عن « عبد الله بن المبارك » «وأبى إسحاق الفزاري » ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفا[7].

وظلت هذه الأمة الإسلامية قروناً تعيش حياة متسقة موحدة المنهج والسلوك لا أثر فيها لشيء من الانفصال الشعوري أو العملي بين الشريعة والسياسة أو بين الدين والدنيا على النحو الذي رأيناه في النصرانية .

نعم وقع في حياة الأمة الإسلامية انحراف بل انحرافات لكنها انحرافات شخصية عملية أملتها الأهواء والأطماع وأسهمت في إرسائها عوامل ليس هذا مجالها .

أما الشريعة ذاتها فقد ظلت سليمة محفوظة وبقيت منهجاً سامياً ثابتاً ترتقي إليه الأمة في فترات اليقظة والإصلاح ، و لم يذهب أبداً من حس الأمة بمجموعها أن تقيس الواقع بالشريعة وأن تنظر إلى الانحراف وإن طال على أنه انحراف . حتى في أحلك العصور وأحرجها كان ضمير الأمة يقظاً وكان فيها علماء أفذاذ يصححون المفهومات ويردون المنحرفين إلى الأصل الثابت الوضاء .

يقول الإمام « ابن القيم » الذي عاش في الفترة المظلمة التي تلت سقوط (بغداد) واكتساح التتار للرقعة الإسلامية (ت ٧٥١ هـ) :

---

(٧) تحذير الخواص : السيوطي : ١٦٣ .

« وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة ، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل . وكل ذلك تقسيم باطل ، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين : صحيح وفاسد فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها والباطل ضدها ومنافيها .
وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها وهو مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنسبة إلى ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاء به ، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص : عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم ، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه مَنْ بعث إليه في أصول الدين وفروعه . فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به .

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً ، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول والسفر والإقامة والصمت والكلام والعزلة والخلطة والغنى والفقر والصحة والمرض وجميع أحكام الحياة والموت .

ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأى عين .

وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله ، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله ، وعرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أحوال الموت وما يكون بعده فى البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما

لم يعرف به نبي غيره ، وكذلك عرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده ، اللهم إلا من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه ، وكذلك عرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة .

« وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم إلى أحد سواه ، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالمَ شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها ؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك ، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به واستغنوا به عما سواه وفتحوا به القلوب والبلاد وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم »[٨] .

* * *

---

(٨) إعلام الموقعين : ٣٧٥/٤ — ٣٧٦ .

الفارق بين الإسلام والنصرانية المحرفة

أما السلطة الكهنوتية فلا وجود لها في الإسلام لا بالشكل الذي عاشته أوروبا النصرانية ولا بغيره .

ذلك أن الإسلام — وهو دين التوحيد الخالص — إنما أنزله الله لتحرير العباد وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده وطاعته دون سواه في التلقي وفي الاتباع ، في المنهج والسلوك وعلى ذلك جاء الأمر صريحاً قاطعاً فيما يتعلق بصرف أي نوع من أنواع العبادة الكثيرة لغير الله ، كائناً من كان : ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو طاغوتاً متألها فالأمر كله سواء ، كله كفر : ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ [آل عمران :٧٩ — ٨٠]

وهذا هو الفارق الجوهري الأول في المسألة بين الإسلام والنصرانية المحرفة فوجود هيئة كهنوتية تشرع لخلق الله أمراً أو نهياً في العقيدة أو الفروع هو شرك أكبر بالله تعالى سواء أجاء ذلك في صورة مراسيم بابوية أم قرارات مجمعية أم منشورات كنسية .

وقصة « عدي بن حاتم » — التي ستأتي قريباً — توضح ذلك كل الوضوح ، ولذلك جاءت دعوة النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أهل الكتاب مناسبة لمقتضى الحال التي كانوا عليها من عبادة الأفراد وتقديس المخلوقين فحينما كتب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى طواغيت الأرض يبلّغهم دعوته كان نص كتاب « هرقل » زعيم النصارى الروم هكذا :

من « محمد » عبد الله ورسوله إلى « هرقل » عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلمْ يؤتك الله أجرك

مرتين ، فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيين و ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[9] [آل عمران : ٩٤] رواه البخاري .

وهذا تعريض جلي بأن النصارى يعبد بعضهم بعضاً وأن الله تعالى يدعوهم إلى الإسلام الذي ينفى ذلك أشد النفيَ .

وعندما اختلف بعض الصحابة رضي الله عنهم مع « ابن عباس » رضي الله عنهما في مسألة متعة الحج احتجوا عليه بفعل « أبي بكر » و « عمر » فقال :

« يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ! أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتقولون : قال « أبو بكر » و « عمر » .هذا مع أن « أبا بكر » و « عمر » رضي الله عنهما أفضل الأمة وأبعدها عن الأمر بما يخالف الكتاب والسنة .

فأين هذا من قرارات الفاتيكان التي ما تزال تصدر بعد المسيح بألفي سنة تحل وتحرم كما تشاء ؟ ومسألة إباحة الطلاق وعدمها أشهر من أن تذكر .

ولا مجال للمقارنة بين الشرك الذي ترتكبه المجامع النصرانية ومجالس الكرادلة وغيرها وبين الاجتهاد الذي يباح لمن كان أهلاً له من علماء المسلمين .

فالاجتهاد هو استنباط ونظر في النصوص الشرعية الموحاة قرآناً أو سنة وليس تشريعاً مستقلاً كما هو الحال في القرارات الكنسية .

ثم إن الاجتهاد لا يعدو كونه رأياً فردياً لا عصمة فيه من الخطأ ولا يلزم أحداً اتباعه بل يحق لأي إنسان أن يخالفه مادامت المخالفة تتمشى أيضاً مع روح الشريعة ومدلولات النصوص .

---

(٩) فتح الباري : ٣٢/١ . والأريسيون : قيل : هم الفلاحون . وقيل : الأتباع عموماً ، انظر المصدر نفسه : ٣٩ [ولا مانع أن يكونوا الموحدين المنتسبين إلى آريوس] .

والقاعدة المشهورة « كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم » هي عبارة قالها كثير من العلماء واتفق عليها الأئمة الأربعة وغيرهم ولا يخالف فيها إلا من خلع ربقة الإسلام بالكلية كغلاة الروافض(*) .

والفارق الجوهري الثاني في المسألة هو أنه لا واسطة بين الله وخلقه في الإسلام على الإطلاق اللهم إلا أن الرسل صلوات الله عليهم يبلغون عن الله تعالى ، والعلماء يبلغون عنهم وقد يسمون وسطاء بالنظر إلى ذلك أما التوسط بمعناه الذي تولته الكنيسة النصرانية فهو في دين الله شرك أكبر ولا وجود له تاريخياً .

نعم وجد ما يشبه ذلك عند بعض المتصوفة مع مريديهم وبين الجهلة من العوام بالنسبة للأموات والصالحين ولكنه — مع اختلافه عن التوسط الكنيسي — ليس من الإسلام ولم يقره علماء الأمة المعتبرون .

قال شيخ الإسلام في رسالة له فريدة :

« ومن سوى الأنبياء — من مشايخ العلماء والدين — فمن أثبتهم وسائط بين الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

« **العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر** » ... ومنْ أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه

(*) في كتاب الحكومة الإسلامية « ... إن الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة » ص ٩١ وفي ص ٧٨ « ... إن الإمام مرجع للناس في جميع الأمور والله قد عيّنه وأناط به كل تصرف وتدبير ... فتكون أفعاله وأقواله حجة على المسلمين يجب إنفاذها ولا يسمح بالتخلف عنها .. » .

كالحُجّاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم ... فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهؤلاء مُشَبِّهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً »[١٠].

وقد أدرك « اتين دينيه » هذه الحقيقة وكانت إحدى دوافع اعتناقه للإسلام يقول :

« الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان ، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم »[١١].

إن الإسلام ليس فيه شيء اسمه رجال دين أصلاً بل إن هذه الكلمة المحدثة لا يستعملها إلا مغرض مضلل أو ساذج مخدوع فالتصور الإسلامى أساساً يرفض فكرة وجود أشخاص أو مجالات دنيوية لا علاقة لها بالدين ، أو دينية لا علاقة لها بالحياة ، بل هو يجعل النفس البشرية ومثلها الحياة البشرية وحدة متناسقة ويخاطبها على هذا الأساس ويربطها بالله تعالى مباشرة في توحيد خالص مجرد والله تعالى يقول : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان** ﴾ [البقرة : ١٨٦] ويقول ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] **فأين هذا من تعاليم النصرانية المحرفة حيث يجلس المذنب على كرسي الاعتراف أمام عبد مخلوق مثله يقر بذنوبه ويلتمس منه المغفرة والرضوان ؟**

(١٠) الواسطة بين الحق والخلق : ١٦:١٧ بتصرف

(١١) أشعة خاصة بنور الإسلام : ٢٣

لقد صان الله الإسلام من تلك الملابسات التي أدت إلى وجود الطائفة الكهنوية النصرانية محرفة لدين الله محتكرة لكتبه فلم يوجد مثل هذه الطائفة في واقع الحياة الإسلامية كما أنه لم يوجد لها مبرر في العقيدة والتصور .

ونتيجة ذلك الطبيعية هي أن الطغيان الفظيع الذي مارسته الكنيسة وكان أحد أسباب العلمانية لا وجود له في تاريخ الإسلام .

* **فالطغيان الدينى** : ذلك الذي يحتكر تعاليم الوحي ويحرف ألفاظها ومعانيها ويسيّر الجيوش الصليبية لسحق المخالفين — من الفرق — في الرأى ويقيم محاكم التفتيش لتصيدهم لم يوجد له — ولله الحمد — نظير في تاريخنا الإسلامى .

* **والطغيان السياسي** : ذلك الذي يستذل الحكام لأشخاص رجال الدين ويعرض الشعوب لطائلة عقوبة الحرمان العام بسبب نزوة غضب تعتري أحد البابوات ويسخر الناس ويكبل ما منح الله للإنسان من حق الحياة الحرة — لم يكن في الإسلام مثله أبداً .

* **والطغيان الاقتصادي** : ذلك الذي يتحكم في موارد وأرزاق البشر ويستذلهم بالعمل المجاني في إقطاعيات الكرادلة والقساوسة ويفرض الضرائب الباهظة على الأمم والأفراد لحساب خزانة الفاتيكان لا وجود لمثله في الإسلام مطلقاً . بل إن الله تعالى أنزل قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل** ﴾ [التوبة : ٣٤] قبل أن يدور في خلد أوروبا الثورة على إقطاع رجال الدين والمطالبة بتحديد مخصصاتهم .

* **والطغيان الفكري والعلمي** : ذلك الذي وقف حجر عثرة في سبيل رقي البرية وأقام محاكم التفتيش لإحراق العلماء أحياء ، وطارد الباحثين التجريبيين كما تطارد الشرطة عصابات الحشاشين ، وصفد العقل البشري بأغلال التعصب والجمود ، وكفّر الناس لأنهم اكتشفوا مايعينهم على فهم بعض حقائق الوجود أو ظروف العيش .. هذا الطغيان الرهيب لا وجود له في الإسلام ولا يمكن أن يوجد بحال في دين يجعل العلم فريضة شرعية والفكر عبادة سامية ويسوي بين مداد العلماء

ودماء الشهداء بل يعد الكلب المعلَّم وسيلة طاهرة في حين أن الكلب الجاهل حيوان نجس !

وكيف تكون نفرة بين العلم والدين وحلقات ودروس الطب والفلك والرياضة بل الشعر والأدب كلها تعقد في الجوامع جنباً إلى جنب مع حلقات الحديث والفقه والتفسير ؟ ! والطبيب والفلكي والرياضي يجلس جنباً إلى جنب مع الفقيه وكبير القضاة في مجلس الخليفة ؟ والمراصد وبيوت الحكمة تغدق عليها الأموال من بيت مال المسلمين ؟

إنه لا مجال للمقارنة ولا داعي للإيضاح ...

* * *

يبقى بعد هذا من عقائد النصرانية وشعائرها التي نفرت الناس منها وتسببت في ثورتهم عليها مسألة الخطيئة الموروثة وموضوع الطقوس التعبدية :

أما الخطيئة الموروثة ــ التي أزعجت فولتير وباسكال بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته منذ أن اعتنقها إلى الآن وبذرت اليأس والقنوط في النفوس فلجأ الكثيرون إلى الأديرة والصوامع ــ أما هذه فإن الموقف الإسلامي منها قطعي وصريح .

فمن جهة معصية آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة نجد أن الواقعة ذُكرت في القرآن مذيّلة بذكر التوبة والاستغفار وبيان أن الله تعالى قبل التوبة وغفر الخطيئة ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة إلى قوله جل شأنه ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ [٣٧]

وفي سورة الأعراف تكون عاقبة الخطيئة ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [٢٣] .

وفي سورة طه يقول تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ [١٢١ - ١٢٢] .

فالله تعالى تاب على آدم وهو ما يزال بعدُ في الملأ الأعلى و لم يهبط إلى الأرض إلا بعد ذلك ، والآيات الكريمة لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم المهول الذي تعطيها إياه تعاليم الكنيسة المحرّفة فهي أمر عرضي في حياة آدم عليه السلام بل في حياة كل بشر ، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار .

صحيح أن حكمة الله تعالى اقتضت أن تجعل المعصية سبباً في الإخراج من الجنة ولكن الله تعالى قبل أن يخلق آدم قال للملائكة ﴿ **إنى جاعل في الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : ٣٠] فموضع الاستخلاف أساساً هو الأرض وعليها يكون الابتلاء وليس ذلك لعنة في ذاته بل هو غاية الحكمة .

ولذلك حَجَّ آدمُ موسىٰ عليهما السلام حين عاتبه على أنه تسبب في إخراج بنيه من الجنة ، فرد عليه آدم كما ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **أفليس تجد فيما أَنزلَ الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها . قال : بلى .** (قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **فحجَّ آدمُ موسىٰ** (ثلاثاً) »[١٢] [أي غلبه بالحجة] .

هذا ومن جهة أخرى فإن التصور الإسلامى يقرر ويؤكد حقيقة عظمى وقاعدة جليلة تضمنها قوله تعالى : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ [النجم ٣٨ ، ٣٩] فلا يؤاخذ الله تعالى أحداً بذنب غيره مهما كانت الصلة بينهما أي أنه حتى لو فرضنا ـــ جدلاً ـــ إن آدم عليه السلام لم يتب فإنه وحده المؤاخَذ بمعصيته إن لم يغفرها الله له ولا ذنبَ للبشرية ، لا المسيحُ ولا غيره .

إنه ـــ حسب قاعدة العدل الرباني ـــ لا يجوز أن يؤاخذ أحد غير آدم بخطيئته حتى ولو كان ابن الشيطان الذي أغواه بالخطيئة ـــ فضلاً عن أن يكون ابن الله ـــ كما تقول الكنيسة ـــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـــ أو أحداً من بني آدم .

---

(١٢) أصل الحديث في البخارى وهذه رواية الشعبى . انظر فتح البارى : ١١/٥٠٥

وبذلك خلا التصور الإسلامى من الأفكار والنظريات التي ابتدعتها الكنيسة باعتبارها من مستلزمات الخطيئة سواء ما يتعلق منها بذات الله عز وجل وبالإنسان .

وكان علماء المسلمين أسبق من فلاسفة عصر التنوير وأتباع مدرسة النقد التاريخي في هذا المضمار يقول أحدهم :

« ... فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكه وعبده ! وإلى ما يأنف عبّاد الأصنام أن ينسب إليه وكذبوا على الله عز وجل في كونه تاب على آدم عليه السلام وغفر له خطيئته ، ونسبوه إلى أقبح الظلم حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في الجحيم بسبب خطيئة أبيهم ، ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلّصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه ، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجّزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا ...

« وبالجملة فلا نعلم أمة سبّت ربها ومعبودها وإلهها بما سبّت به هذه الأمة كما قال « عمر » رضي الله عنه : « إنهم سبُّوا الله مسبَّةً ما سَبَّهُ إياها أحد من البشر » وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبياً أغمض عينيه وقال : لا أستطيع أن أملأ عينيّ مِمَّنْ سبَّ إلهه ومعبوده بأقبح السب .

« ولهذا قال عقلاء الملوك (ملك الهند) : إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً فإنهم عار على بني آدم ، مفسدون للعقول والشرائع »[١٣] .

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لا حصر لها دوّنها علماء المسلمين قبل أن يخلق « سبينوزا » و « باسكال » و « فولتير » بقرون وقبل أن تفكر أوروبا فى شيء اسمه « النقد التاريخي » أو حرية التفكير .

---

(١٣) الإمام ابن القيم : إغاثة اللهفان : ٢٨٤/٢ .

* وينتهي بنا المطاف **إلى شعائر النصرانية وطقوسها لاسيما الطقس الأكبر (العشاء الرباني)** الذي كان وما يزال من أعظم حجج المناهضين للنصرانية لما يصدم به العقل والبديهة والحس .

ولا نحتاج إلى توكيد أن الإسلام ليس فيه شيء من هذا ولا ما يشبهه فإن الإسلام وهو دين الله الحق أجلّ وأسمى من أن يشتمل على مثل هذه الطقوس الوثنية المنقولة عن الأمم الغابرة . إن الله تعالى منّ على البشرية بالإسلام مِنَّة عظيمة إذ حررها من مثل هذه السخافات وأنزل شعائر هي في غاية الحكمة والسمو والاتساق مع العقل والفطرة ، شعائر لا غموض فيها ولاتمتمات ولا أسرار مقدسة ، ليس أدل على ذلك من أن كثيراً من الغربيين يؤخذ بروعة مشهد المسلمين وهم يصلون ، إلى درجة أن ذلك كان سبباً في دخول بعضهم أو تفكيره في أن يدخل في الإسلام يقول « توماس أرنولد » :

« إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد أن يبلغ تأثره به أعماق قلبه وأن لا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها »[١٤].

وقال « رينان » : « لم أدخل مسجداً إلا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حينما أذكر أنني لست مسلماً »[١٥].

ويقارن المستشرق الأمريكي « بودلي » بين النصرانية والإسلام في ذلك قائلاً :
« لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقى الغريبة في المعبد المقرونة باسمه ، ولن يعيد البخور والصور والرق إلى ذهنه أي شيء من تعاليم سيده المسيح . ولكن إذا ما عاد محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) إلى أي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كانت تقام في مسجده في

---

(١٤) إلى الدين الفطري الأبدي : الطرازي : ٢٦٣ .
(١٥) المصدر السابق : ٢٦٤ .

المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر »[١٦].

* **أما المهزلة التاريخية العظمى (صكوك الغفران) التي تعد بحق صفحة سوداء في تاريخ الإنسانية فلا يستطيع أحد من أعداء الإسلام أو دعاة العلمانية مهما بلغت به المكابرة أن يزعم أنها وجدت في التاريخ الإسلامي فضلاً عن أصوله التشريعية ذاتها . فهذه المهزلة الأضحوكة لم يعرفها المسلمون حتى في أحط وأحلك عصورهم** حين فشا الجهل وعلقت بعض الخرافات بأذهان الجهلة والعوام و لم يحدث قط أن كتب أحد مشايخ الصوفية أو من يسمون أولياء وثيقة غفران بل نستطيع أن نقول إن ذلك لم يَدُرْ في خلده و لم يخطر له على بال .

ذلك أن الأمة الإسلامية مهما انحرفت وتخبطت تظل لديها مسكة من عقل وبقية من إيمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التي لم يتورع عنها بابوات الكنيسة قرابة ثلاثة قرون .

* * *

هذه الفروق الجوهرية الكبرى بين الإسلام والديانة الكنسية وبين تاريخه وتاريخها تقدم إجابة ضخمة ساطعة على السؤال الذي طُرح سلَفاً وهو : **هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر .. ؟**

وما علينا بعد ذلك إن غالط المغالطون وتمحّل المخادِعون ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٣].

---

(١٦) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : ٢٣ — ٢٤ .

فصـل

حكم العلمانية فى الإسلام

إن العلمانية لا تستدعى في حقيقة الأمر كبير جهد لبيان تناقضها مع دين الله تعالى « الإسلام » فهي من ذلك النوع من الاتجاهات والأفكار التي قال عنها علماؤنا قديماً : « إن تصوره وحدَه كافٍ في الرد عليه » ! .

ولكن نظراً لما أصاب كثيراً من التصورات الإسلامية من انحراف وغبش في أذهان الناس ولما يثيره أعداء الإسلام — الظاهرون والمتستّرون — من شبهات وأباطيل فإن من الضروري تجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبهات .

وإذا كان التوحيد هو أعظم حقيقة في التصور الإسلامي — بل في الوجود كله — فإنه كذلك أكبر نقيض للعلمانية ومن ثم كان لا بد من معرفته حق المعرفة .

التوحيد :

إن التوحيد لهو القضية التي احتدمت فيها المعركة بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبين أقوامهم ، وانقسمت البشرية بسببها قسمين متناحرين : مسلمين موحّدين ومشركين ضالين . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقبل أن نحاول إيضاح المفهوم الحقيقي لعقيدة التوحيد يحسن بنا النظر إلى حال الأقوام الذين بعثت فيهم الرسل واشتبكت معهم في صراع دائب على مدار التاريخ ، ذلك أن معرفة حالهم هي خير معين لمعرفة العقيدة التي أنزلها الله لتصحيح

هذه الحال .

وما دامت مهمة المرسلين واحدة وقضيتهم مع أممهم واحدة فلننظر إلى الأمة التي بُعث بها النبي الخاتم صلى الله عليه وعلى آله وسلم بآخر وأكمل الرسالات . كيف كانت تصوراتها ؟ وكيف كان منهج حياتها ؟ وبصفة أخص فيم ولماذا اشتد النزاع بينها وبين دعوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟

* إن الدارس لعقائد الجاهلية العربية يجد ــ من أول وهلة ــ أنها لم تكن تنكر وجود الله أبداً بل كانت توحّده في معظم أفعاله تعالى كالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة ... والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾. [لقمان : ٢٥]

وفي كلام العرب وشعرهم كقول امرىء القيس :

إذا ما اتقى الله الفتى ثُمَّ لم يكنْ
على أهلِهِ كَلّاً فَقَدْ كَمُلَ الفتى[(١)]

وكانوا يُقرّون بمشيئة الله النافذة في الكون وقدَرِه الذي لا يُرد : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ﴿ **ومن يدبر الأمر فسيقولون الله** ﴾ [يونس : ١٣]

ومنه قول عنترة :

ياعبلُ أين من المَنِيَّةِ مهربي إنْ كان ربّي في السماءِ قضاها[(٢)]

وكانوا يؤمنون بالملائكة ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة** ﴾ [الفرقان : ٧٧] ويؤمنون كذلك بالرسل ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ومنه قول النابغة :

---

(١) ديوان امرىء القيس بتحقيق « محمد أبو الفضل إبراهيم » ٣٦٦ .
(٢) ديوان عنترة : ١٨٣ .

فألفيتَ الأمانةَ لم تَخُنْهَا   كـذلك كان نـوحٌ لا يخونُ[3]

وكانوا يؤمنون بالكتب ويسمون اليهود والنصارى أهل الكتاب ﴿ **وقالوا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ [الفرقان : ٣٢] أي كالتوراة والإنجيل .

وكان منهم من يؤمن بالبعث والحساب كقول زهير :

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ   لِيَوْمِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[4]

وكذلك كان لدى الجاهليين العرب بعض الشعائر التعبدية : منها تعظيم البيت الحرام وطوافهم حوله ووقوفهم بعرفات وتعظيم الأشهر الحرم ، قال النابغة في وصف الحُجّاج :

مشمّرين على خوص مزمَّمة   نرجو الإله ونرجو البر والطّعما[5]

ومن ذلك ذبحهم ونذرهم لله كما في قصة نذر عبد المطلب ، وإهدائهم للبيت الحرام وتخصيص شيء من الحرث والأنعام لله ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً** ﴾ [الأنعام : ١٣٦]

* ومن الناحية التشريعية كانت الجاهلية العربية تقيم بعض الحدود كحد السرقة فقد ذكر « ابن الكلبي » و« القرطبي » في تفسيره أن قريشاً كانت تقطع يد السارق[6] وهو حد معروف في الشرائع السابقة — كما في حديث « المخزومية » وشفاعة « زيد » لها — وشيء آخر سبقت — بل فاقت — به الجاهلية العربية الجاهليات اللادينية المعاصرة وهو « حرية التدين » فكان منهم الحنفاء الذين يتعبدون ببقايا دين « إبراهيم » عليه السلام وكان منهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان منهم عبدة الكواكب وعُبّاد الأوثان وبعضهم كان يعبد الجن أو الملائكة .

---

(٣) ديوان النابغة : ١٢٦

(٤) شرح ديوان زهير : ٨١

(٥) ديوان النابغة : ١٠٢

(٦) أضواء البيان الشنقيطي : ٣٩٢:٣

هذا كله غير المزايا الخلقية التي كانت البيئة التي بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحوي منها مالا تحويه البيئات الأخرى !

ولكن ــ وهذا هو المهم ــ **بماذا حكم الله على هذا المجتمع . وكم حسبت هذه الأمور كلها في ميزان الإسلام ؟**

إن الله تعالى حكم على هذه البيئة ــ وعلى الواقع الأرضي كله حينئذ ــ بأنها كفر وجاهلية وعدّ تلك الأمور جميعها صفراً في ميزان الإسلام وحتى ماأقر من معتقداتها جاء على أساس جديد وفي صورة جديدة كأنما هو ــ فعلاً ــ شيء جديد .

ولذلك نشبت المعركة الطويلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم واشتد النزاع ، معركة شرسة ونزاع حاد ، حتى إن السيف كان الحكم الأخير .

والشيء المثير ــ أيضاً ــ أن موضوع هذه المعركة العنيفة الطويلة لم يكن سوى كلمة واحدة هي كلمة « لا إله إلاَّ الله » كلمة يصر عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أقصى حدود الإصرار وترفضها الجاهلية العربية إلى أبعد مدى للإنكار ، يرفضونها عن علم ويقين بأن لها معنى عظيماً ومدلولاً خطراً وأنها تستتبع مسؤوليات جسيمة وتكاليف ثقيلة .

منذ اللحظة الأولى حين دعاهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى « لا إله إلاَّ الله » كان الجواب الفوري ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾ [ص : ٥] فالقضية واضحة في أذهانهم : إن الالتزام بهذه الكلمة معناه الرفض الجازم والتخلي الكامل عن كل ما عدا الله من معبوداتهم وطواغيتهم المختلفة : طاغوت الأوثان وطاغوت الزعامة وطاغوت القبيلة وطاغوت الكهانة وطاغوت التقاليد ... إلخ والاستسلام الكامل لله ورد الأمر كله ــ جليله وحقيره وكبيره وصغيره ــ إلى الله تعالى وحده لا شريك له ، وهذا موقف واحد من مواقف الصراع حول هذه الكلمة :

* « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فوجد عنده « أبا جهل » و « عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : **ياعمِّ قل : لا إله إلاَّ الله . كلمة أشهد لك بها عند الله** فقال « أبو جهل » و « عبد الله بن أبي أمية » : يا أبا طالب : أترغب عن ملة « عبد المطلب » ؟ ! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال « أبو طالب » آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ... »[7].

أرأيت ؟ ! رجل في ساعة الاحتضار الأخيرة يراد منه أن يقول هذه الكلمة — الخفيفة على اللسان — فما الذي يجعل طواغيت قريش تتشبث بهذا الإصرار المستميت على ألاَّ يقولها ؟ وما الذي يجعل هذا الرجل يلفظ أنفاسه دون أن ينطقها لو كانت المسألة مسألة لفظ باللسان لما حدث شيء من هذا أبداً ... ولكنه المعنى الخطير والمغزى العميق الذي أدركه هؤلاء المشركون وغفل عنه أكثر المسلمين في العصور الأخيرة .

وإذا كان معنى « لا إله إلاَّ الله » الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] — وهو أيضاً نفى العبادة عما سوى الله تعالى كما قال كل نبي لقومه ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ [الأعراف : ٥٩] وإذا كانت هذه هي دعوة الرسل جميعاً ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [النحل : ٢٦] — فإن حقيقتها لا تتجلى إلاَّ بمعرفة حقيقة هذين : « الطاغوت ، والعبادة » ...

١ — الطاغوت :

جاءت هذه الكلمة في القرآن والسنة كثيراً ، وخير تعريف لها ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله : « الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبود أو متبوع

(٧) صحيح مسلم : ٢١٤/١ مع شرح النووي

أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله »[٨].

من هذا يتبين أن « الطاغوت » لفظ عام يشمل كل ما يضاد « لا إله إلاَّ الله » سواء أكان شعاراً أم نظاماً أم قانوناً أم شخصاً أم راية أم حزباً أم فكرة ... إلخ . ولذلك ذكر الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ـــ رحمه الله ـــ أن الطواغيت كثيرون ثم حدد رؤوسهم بخمسة :

الطاغوت الأول : الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله ، والدليل قوله تعالى : **﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألَّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾** [يس : ٦٠]

الطاغوت الثاني : الحاكم الجائر المغيِّر لأحكام الله ، والدليل قوله تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾** [النساء : ٦٠]

الطاغوت الثالث : الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والدليل قوله تعالى : **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾** [المائدة : ٤٤]

الطاغوت الرابع : الذي يدّعي علم الغيب من دون الله ...

الطاغوت الخامس : الذي يُعبد من دون الله وهو راض بالعبادة ... »[٩].

وعلى هذا نستطيع القول بأن الشرك ـــ ذنب البشرية الأكبر ومدار الصراع بين الأمم والرسل ـــ هو عبادة الطاغوت مع الله أو من دونه في أمرين متلازمين : « الإرادة والقصد ، والطاعة والاتباع » .

---

(٨) إعلام الموقعين : ٥٢

(٩) مجموعة التوحيد : ١٢

أما شرك الإرادة والقصد فهو التوجه إلى غير الله تعالى بشيء من شعائر التعبد ؛ كالصلاة والقرابين والنذور والدعاء والاستغاثة ، تبعاً للسذاجة الجاهلية القائلة : ﴿ **ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ [الزمر : ٣] وطاغوت هذا النوع هو الصنم أو الوثن أو الجني أو الطوطم ... إلخ .

وأما شرك الطاعة والاتباع فهو التمرد على شرع الله تعالى وعدم تحكيمه في شؤون الحياة بعضها أو كلها وهو مَفْرِق الطريق بين الإسلام والجاهلية ، كما أنه السمة المشتركة بين الجاهليات كلها على مدار التاريخ ، وبه استحقت أن تسمى جاهلية مهما بلغ شأنها في الحضارة والمعرفة ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ [المائدة : ٥٠] ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾ [الشورى : ٢١] وطاغوت هذا النوع هو الزعماء والكهان والكبراء والأنظمة والأوضاع والتقاليد والأعراف والقوانين والدساتير والأهواء ... إلخ .

والواقع أن كلا النوعين من الشرك مردُّهما إلى أصل واحد وهو تحكيم غير الله والتلقي عنه ، فإن مقتضى تحكيمه وحده ألاّ تتوجه البشرية إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادة والقربات وألّا تتوجه وتسير في حياتها كلها إلّا وفق ما شرع لها في كتبه وعلى لسان رسله . قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألّا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[يوسف : ٤٠]

فرد الأمر كله إلى الله واتخاذه وحده حكماً في كل شيء هو بعينه العبادة التي أمر الله ألّا يصرف شيء منها لغيره وهذا هو ذات الدين القيم الذي لا يرضى الله تعالى سواه وإن جهله أكثر الناس على مدار التاريخ .

إذا تقرر هذا فكل ما يجابه هذه الحقيقة أو جزءاً منها فهو طاغوت في أي صورة كان وفي أي عصر ظهر ، ولا يكون الإنسان ــ فرداً أو مجتمعاً ــ شاهداً ألّا إله إلّا الله حقيقة إلّا بالكفر به والبراءة منه وأهله .

من أجل ذلك كان العربي يقول هذه الكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينخلع عن الجاهلية انخلاعاً تاماً وينسلخ من كل أعرافها

وأوضاعها وقيمها وموازينها وإيحاءاتها وينضم إلى موكب الإيمان وهو متجرد لله منقاد لأوامره بلا تردد أو استثناء ...

٢ ــ العبادة :

العبادة هي العلاقة بين هذا الكون بكل ما فيه من جمادات وأحياء وبين الخالق سبحانه وتعالى ، وهي الغاية من الوجود الإنساني بل من وجود المخلوقين المكلفين إنساً وجناً ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦]

والمختار من تعريفاتها ما قاله شيخ الإسلام « ابن تيمية » رحمه الله وهو أنها « اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »

وقد أثبت رحمه الله في رسالة العبودية أن الدين كله داخل في العبادة مؤيداً ذلك بالأدلة الشرعية واللغوية .

وقد سبقت الإشارة إلى أن ذلك هو منطوق قوله تعالى ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم** ﴾ [يوسف : ٤٠] وهو كذلك مفهوم قوله جل شأنه ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ [البينة : ٥] .

وزاد هذه الحقيقة إيضاحاً تلميذه ابن القيم ــ رحمه الله ــ الذي أسهب في بيان قواعد العبادة ومراتبها واستغراقها للنشاط البشري كله فقال : « ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، مَنْ كَمَّلها كَمَّل مراتب العبودية ، وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح »[١٠].

ثم فصّل القول في الجوارح فقال : « أما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً إذ الحواس خمس وعلى كل حاسة خمس عبوديات » وذكر كل نوع مع الشرح والتمثيل .

(١٠) مدارج السالكين : ١/١٠٩

ويوضح هذا بتوسع ما قاله الشهيد سيد قطب رحمه الله عند الحديث عن قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] ومنه :

« ... إن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر والله لا يكلفهم بهذا وهو يكلفهم ألواناً أُخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلِّفُها الجن ، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : ٣٠] فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني ، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض والتعرف إلى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها ، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي تناسق مع الناموس الكوني العام .

« ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً وربّاً ، عبداً يَعبد وربّاً يُعبَد . وأن ليس وراء ذلك شيء وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار : ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا ربٌّ واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وبكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة ، التوجه بها إلى الله خالصة والتجرد من كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله »[١١].

(١١) المجلد السادس ج ٢٧ ، ص ٢٨

وهذه المعاني دل عليها صريح القرآن كما في قوله تعالى ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك لله** ﴾ [الأنعام :١٦٢/١٦٣] .
ولذلك فإن نهي الله تعالى عن الإشراك به في عبادته وإخلاصها له وحده كما في قوله تعالى ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر ٢:٣] وقوله ﴿ **قل أفغير الله تأمرونِّي أعبد أيها الجاهلون** ﴾ [الزمر : ٦٤] ، يتوجه إلى هذه المعاني بجملتها كما سيأتي تفسيره في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

إن فطرة الإنسان وطبيعة تكوينه وافتقاره الذاتي لهي قاطعة الدلالة على أنه « عبد » ولا يمكن أن يكون غير ذلك وما عليه إلا أن يختار معبوده ...

وقد أثبت شيخ الإسلام « ابن تيمية » في رسالة العبودية « أن الإنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما ، **فإما أن يختار العبودية لله** ، **وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله** »[١٢] .

وكل عبودية لغير الله كبرت أم صغرت هي في نهايتها عبادة للشيطان ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم** ﴾ [يس : ٦٠] وهذا هو المؤدى الأخير مهما تنوعت الأساليب وتعددت السبل .

يشمل ذلك العرب الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **إنْ يَدْعون مِن دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً** ﴾ [النساء : ١١٧] ، ويشمل كذلك كل عبادة لغير الله على مدار التاريخ .

« لقد تغيرت ولا شك بعض مظاهر العبادة فلم يعد هناك تلك « الإناث » التي كان العرب في شركهم يعبدونها ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير وحلّت محل الإناث القديمة أوثان أُخرى : الدولة ، والزعيم ، والمذهب ، والحزب ، والعلم ، والتقدم ، والإنتاج ، والحضارة ، والتطور ، والمجتمع ، والوطن ،

(١٢) مقدمة رسالة العبودية : ٦

والقومية ، والإنسانية ، والعقلانية ، « والمودَّةُ » ، والجنس ، والحرية الشخصية ...

« عشرات من الإناث الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة التي كان يعبدها العرب في الجاهلية تضفى عليها القداسات الزائفة وتُعبد من دون الله ويطاع أمرها في مخالفة الله وفي تغيير خلق الله ... ما تغيرت إلاَّ مظاهر العبادة ... « **تطورت** » ! ولكن الجوهر لم يتغير ... إنه عبادة الشيطان »[١٣].

* * *

على ضوء هذا الفهم الإجمالي لمعنى « الطاغوت والعبادة » يتضح لنا المعنى الحقيقي « للا إله إلا الله » الذي هو — كما سبق — الكفر بالطاغوت وإفراد الله تعالى بالعبادة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم نستطيع أن نرى **حكم الله في العلمانية بسهولة ووضوح أنها باختصار : نظام طاغوتي جاهلي يتنافى مع « لا إله إلا الله » من ناحيتين أساسيتين متلازمتين :**

أولاً — من ناحية كونها حكماً بغير ما أنزل الله .
ثانياً — من ناحية كونها شركاً في عبادة الله .

ومع جلاء هذه الحقيقة ويسر إدراكها فإننا سنتناولها بشيء من التفصيل مناقشين للشبهات المتهافتة التي قد تثار حولها .

أولاً — الحكم بغير ما أنزل الله :

في الكلام السابق عن الطاغوت عرفنا أنه — باختصار — الحكم أو الحاكم بغير ما أنزل الله ، وهنا نريد إيضاح **حكم العلمانية بتطبيقها على قاعدة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾** التي هي مضمون الإسلام ومقتضى كلمة « لا إله إلاَّ الله » .

(١٣) دراسات قرآنية : محمد قطب ٤٦٩

إن العلمانية تعني — بداهة — الحكم بغير ما أنزل الله **فهذا هو معنى قيام الحياة على غير الدين** ، ومن ثم فهي — بالبديهة أيضاً — نظام جاهلي لا مكان لمعتقِده في دائرة الإسلام بل هو كافر بنص القرآن الكريم ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤]

وإن مما يثير الانتباه أن أكثر الآيات الواردة في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ونفى الإيمان عنه — إن لم تكن كلها — إنما جاءت في سياق الكلام عن الذين يدّعون الإيمان من أهل الكتاب أو المتظاهرين بالإسلام وربما كانت الحكمة في ذلك أن من لم يدّعِ الإيمان بشيء من كتب الله كافر بالضرورة ، وقضية تحاكمه إلى غير الله واضحة لا لبس فيها ، ولكن الوهم قد يصيب بعض من ينتسبون إلى أحد الكتب السماوية فيحسبون أنهم مؤمنون وهم لا يحكمون بما أنزل الله فيها بل يطيعون غير الله معه أو مَنْ دونه . يوضح ذلك الآيات المتتابعة في سورة المائدة من قوله تعالى ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ... إلى قوله تعالى ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومَنْ أحسنُ مِن الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ [٤٤ :٥٠] .

« وآية آل عمران » ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾ [٢٣] .

وآيات سورة النساء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً** ﴾ إلى أن قال جل ذِكْرُه : ﴿ **فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ [٥٩ : ٦٥] أما سورة الأنعام

التي يكاد موضوع التشريع والحاكمية يستغرقها كلها فنلحظ ذلك في قوله تعالى : ﴿ **أفغير الله أبتغي حكماً** ﴾[١١٤] مع قوله ﴿ **أغير الله أتخذ ولياً** ﴾[١٤] وقوله ﴿ **أغير الله أبغي رباً** ﴾ [١٦٤] فسوّى بين الحاكمية والولاية والربوبية ، وقال للمؤمنين : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [١٢١] .

وفي سورة التوبة يقول تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [٣١] ، وكذلك في سورة النور : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ [٤٧ : ٥١] وفي سورة « محمد » صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم مِن بعد ما تبين لهم الهدى الشيطانُ سوّل لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾ [٢٥ : ٢٦] .

قال شيخ الإسلام « ابن تيمية » رحمه الله تعالى :

« لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرها بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين . ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون فهؤلاء إذا عرفوا أنهم

لا يجوز لهم الحكم إلاّ بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار »[١٤].

وقال ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ عند تفسير قوله تعالى ﴿ **فلا وربك لايؤمنون ...** ﴾ **الآية** [النساء : ٦٥] « يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً . ولهذا قال : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ [النساء :٦٥] أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلّمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة »[١٥].

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٥٠]

« ينكر الله تعالى على مَن خرج عن حكم الله المحكَم ، المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم « جنكيز خان » الذي وضع لهم « الياسق » ـــ وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم – فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل

(١٤) مجموعة التوحيد ، الرسالة الثانية عشرة : ٤١٣
(١٥) تفسير القرآن العظيم : ٥٢٠/١

ولا كثير قال تعالى : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ [المائدة : ٥٠] أي يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون ، ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٥٠] أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم لخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء » .

ثم ذكر — رحمه الله — ماروواه أبو حاتم بسنده عن الحسن البصري قال : « من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية » . وبسنده عن « طاووس » أنه كان إذا سأله رجل : **أفضّل** بين ولدي في النحل ؟ (أي في العطية) **قرأ** ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ [المائدة : ٥٠] مما يدل على حساسية السلف رضي الله عنهم المرهفة تجاه الموضوع وتنفيرهم من اتباع غير شرع الله في أي أمر وإن صغر .

وعقب ابن كثير على ذلك بذكر الحديث الذى رواه « البخارى » عن « ابن عباس » رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سُنَّة الجاهلية** » الحديث(١٦) ومراده من ذلك بيان أن الجاهلية صفة تلحق كل من حكم بغير ما أنزل الله وليست فترة تاريخية انتهت بظهور الإسلام .

ويقول الشيخ « محمد بن إبراهيم » رحمه الله :

« ... من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل وإما كفر اعتقاد ». ثم قال في تفصيل كفر الاعتقاد : « وهو أنواع : أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله ... **الثاني** : ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً لكن اعتقد أن حكم غير الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع إما مطلقاً أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن التطور في الزمان

(١٦) تفسير القران العظيم : ٦٧/٢

وتغير الأحوال وهذا أيضاً لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم المجيد .

الثالث : ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ولكن اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة ... .

الرابع : أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله ...

الخامس : وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وتفريعاً وحكماً وإلزاماً ومراجع ومستندات ، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة ... فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكمّلة مفتوحة الأبواب والناس إليها أسراب إثر أسراب يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة ... فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ... »[17] .

إن هذا الحشد من الآيات — وأمثالها في القرآن كثير بل إن موضوعها لهو موضوع القرآن الرئيسي — مع ذكر ما ذكره العلماء في فهمها من الأقوال ليدل دلالة قاطعة على نفي الإيمان عمن ابتغى غير الله حَكَماً في أية قضية من قضايا الحياة والحكم عليه بالكفر والشرك والنفاق والجاهلية كلها سواء وأن ورودها في حق مدعي الإيمان بالله وكتبه لمما يزيد المعنى قوة وصراحة وجلاء .

بل إن قوله تعالى : ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [الأنعام : ١٢١] خطاب لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأتباعه وفي قضية فرعية هي الأكل

(١٧) تحكيم القوانين : ٥ — ٧

مما لم يذكر اسم الله عليه .

فهل يبقى بعد هذا مجال للشك أو التردد ؟

الحق أنه لا مجال لشيء من ذلك ولكن الغياب المذهل لحقائق الإسلام من العقول والقلوب والغبش الكثيف الذي أنتجته عصور الانحراف هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيراً من الناس يثيرون شبهات متهافتة لم تكن لتستحق أدنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم .

بعض الشبهات والرد عليها :

* من هذه الشبهات **استصعاب بعض الناس إطلاق لفظ الكفر أو الجاهلية — على من أطلقهما الله تعالى عليه من الأنظمة والأوضاع والأفراد بذريعة أن هذه الأنظمة — لاسيما العلمانية الديموقراطية — لا تنكر وجود الله ولا تمانع في إقامة شعائر التعبد ، وبعض أفراد الأنظمة العلمانية يتلفظون بالشهادة ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام وحج وصدقة ويحترمون رجال الدين (!) والمؤسسات الدينية ... إلخ . فكيف نستسيغ القول بأن العلمانية نظام جاهلي وأن المؤمنين بها جاهليون ؟**

* الجواب: من الواضح جداً أن الذين يلوكون هذه الشبهة لا يعرفون معنى « لا إله إلا الله » ولا مدلول « الإسلام » وهذا على فرض حسن الظن بهم وهو ما لا يجوز في حق كثير من المثقفين الذين يتعللون بهذه العلل .

إن تاريخ الدعوة الإسلامية وصراعها المرير وإن القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره ومثله السنة — لتقطع الطريق على هذه الشبهة وقائليها .

هل تحمّل الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه العنت والمشقة والحرب والجهاد ثلاثاً وعشرين سنة متوالية وهل نزل القرآن الكريم موجّها وآمراً وناهياً طوال هذه السنين من أجل أن يقول الجاهليون باللسان فقط ... « لا إله إلا الله » ويقيموا الشعائر التي يمن دعاة العلمانية على الله أنهم يسمحون بها ؟ ...

وما الفرق بين قول قريش : يامحمد اعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة ، وبين قول العلمانيين ـــ لفظاً أو حالاً ـــ نعبد الله في المسجد ونطيع غيره في المتجر أو البرلمان أو الجامعة ؟ أهو شيء آخر غير أن قسمة أولئك زمنية وقسمة هؤلاء مكانية أو موضوعية ؟

إن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] والسلم هو الإسلام[١٨] . ويقول : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

ويقول : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً** ﴾ [النساء : ١٥٠] ـــ ويقول : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [يوسف : ٤٠]

وقد سبق أن أوضحنا أن التلفظ بالشهادة ليس هو وحده المقصود منها ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول :

إن العلماء قد وضعوا ـــ بعد استقراء وتتبع نصوص الكتاب والسنة ـــ لشهادة ألا إله إلا الله وللإسلام شروطاً ووضعوا لها نواقض فمتى انتفى شيء من الشروط أو وجد شيء من النواقض فقد انتقض الأصل ، والواقع المشاهد أكبر دليل على ذلك فكم بين من يتلفظون بالشهادة في بلاد المسلمين من ملحدين ومرتدّين ومشركين لا شك في أمرهم فلو أن النطق بالشهادة لا شروط له ولا نواقض لكان هؤلاء مسلمين حتماً .

ومن نواقض الإسلام العشرة ـــ غير الشرك الذي هو الناقض الأكبر والذي لا شك أن العلمانية نوع منه كما سيأتي – ناقضان :

١ ـــ « من اعتقد أن هدي غير النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكمل من

(١٨) انظرّ تفسير الطبري : ٢/٣٢٣

هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر » .

٢ — « من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر »[١٩].

ولعل مما يقطع دابر كل شبهة أن نستشهد بكلام الأثبات من علماء المسلمين السابقين لعصرنا الذين نظروا إلى القضية من وجهة فقهية خالصة .

سئل شيخ الإسلام « ابن تيمية » رحمه الله تعالى عن حكم قتال التتار الذين يقدمون إلى الشام مرة بعد مرة وقد تكلموا بالشهادتين وانتسبوا إلى الإسلام ولم يبقوا على الكفر الذي كانوا عليه في أول الأمر ؟

وقبل أن نقرأ الفتوى علينا أن نتذكر أن قانون التتار هو « الياسق » الذى ذكره ابن كثير سابقاً وسيشير شيخ الإسلام إليه فيها فأجاب رحمه الله بفتوى طويلة قيّمة منها :

« كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين ... » .

« وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش أو الزنا أو الميسر أو الخمر أو غير ذلك من محرمات الشريعة وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار ... قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله لله وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بَقِيَ من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا

(١٩) مجموعة التوحيد : ٣٧ — ٣٨

فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ [البقرة :٢٧٨ : ٢٧٩] وهذه الآية نزلت في أهل الطائف وكانوا قد أسلموا وصلّوا وصاموا لكن كانوا يتعاملون بالربا ... والربا آخر المحرمات في القرآن وهو مال يوجد بتراضي المتعاملين فإذا كان مَنْ لم ينته عنه محارباً لله ورسوله فكيف بمن لم ينته عن غيره من المحرمات التي هي أسبق تحريماً وأعظم تحريماً ؟ » .

ثم استشهد رحمه الله بالأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الأمر بقتال الخوارج ووصفه لهم بالمروق من الدِّين كما يمرق السهم من الرميّة مع قوله عنهم : « **يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم** » واستشهد بإجماع الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعي الزكاة مع أنهم يقيمون الصلاة ويُقرّون بالشريعة ولم يمتنعوا عن دفع الزكاة إلا تأولاً بأن دفعها خاص بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ظاهر الآية : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ [التوبة : ١٠٣] **فكيف بغير المتأول بل كيف بمن خرج على الشريعة من أصلها** ؟ وذكر ــ رحمه الله ــ أن مما يوجب تكفير ملك التتار وقتاله أنه « يرد الناس عما كانوا عليه في سلك الأنبياء والمرسلين إلى أن يدخلوا فيما ابتدعه من سنته الجاهلية وشريعته الكفرية فهم يدعون دين الإسلام ويعظمون دين أولئك الكفار على دين المسلمين ويطيعونهم ويوالونهم أعظم بكثير من طاعة الله ورسوله وموالاة المؤمنين . والحكم فيما شجر بين أكابرهم بحكم الجاهلية لا بحكم الله ورسوله » ــ يعني أنهم يتحاكمون إلى الياسق ــ ثم قال « ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوّغ اتباع غير دين الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض .

كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾
[النساء :١٥٠ : ١٥١]

« وإذا كانت الردة عن أصل الدين أعظم من الكفر بأصل الدين فالردة عن شرائعه أعظم من خروج الخارج الأصلي عن شرائعه » ...

« فإن المسلم الأصلي إذا ارتد عن بعض شرائعه كان أسوأ حالاً ممن لم يدخل بعد في تلك الشرائع مثل مانعي الزكاة وأمثالهم ممن قاتلهم الصديق »[20].

أما الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » فاستشهد على هذه المسألة بإجماع العلماء على تكفير العبيديين المعروفين خطأً بالفاطميين قائلاً :

« ويقال أيضاً « بنو عبيد القداح » الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن « بني العباس » كلهم يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدّعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون مانحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم وأن بلادهم بلاد حرب وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين »[21].

وقد طبق حفيده الشيخ « عبد الرحمن بن حسن » شروط « لا إله إلا الله » على مَنْ أسماهم « عبّاد القبور والطواغيت والأصنام » فقال في شرح قوله تعالى :
﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾
[البقرة : ١٦٥]

« فإنهم أحبوهم مع الله ، وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون « لا إله إلا الله » ويصلون ويصومون فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه ؛ لأن المشرك لا يتقبل منه عمل ولا يصح منه ، وهؤلاء وإن قالوا « لا إله إلا الله » فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة من :

١ ـــ العلم بمدلولها لأن المشرك جاهل بمعناها ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً

(٢٠) الفتاوى الكبرى : ٢٨٠/٤ ـــ ٢٩٣

(٢١) مجموعة التوحيد : ١١٧ ومثله في الفتاوى الكبرى : ٢٣١/٤

في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص .

٢ ــ ولم يكن صادقاً في قولها لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص .

٣ ــ وترك اليقين أيضاً لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه ولم يقبله وهو الحق .

٤ ــ ولم يكفر بما يعبد من دون الله كما في الحديث (يعني حديث : **من قال « لا إله إلا الله » وكفر بما يعبدون من دون الله حرّم الله ماله ودمه** . رواه مسلم) ، بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند ومحبته له وعبادته إياه من دون الله ... .[٢٢]

وبناءً على ما سبق يتضح أن تلك الشبهة ــ شبهة التلفظ بالشهادة وإقامة بعض الشعائر ــ لا وزن لها ولا اعتبار بجانب البراهين القاطعة والحقائق النيرة في معنى « لا إله إلا الله » .

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند قول شيخ الإسلام : « إن الردة عن شرائع الدين أعظم من خروج الخارج الأصلي عنها » لنقول : إن هذا هو ما أدركه المخطط اليهودي الصليبي فقد يئس المخطط من إخراج المسلمين عن أصل دينهم إلى المذاهب الإلحادية والمادية فلجأ ــ بعد التفكير والتدبير ــ إلى ما هو أخبث وأخطر : **لجأ إلى اصطناع أنظمة تحكم بغير ما أنزل الله وفي الوقت نفسه هي تدعي الإسلام وتظهر احترام العقيدة فقتلوا إحساس الجماهير وضمّنوا ولاءها وخدّروا ضميرها ثم انطلقوا يهدمون شريعة الله في مأمن من انتفاضتها ولذلك لا يجرؤ أرباب هذه الأنظمة على التصريح بأنهم ملحدون أو لا دينيون بينما يصرحون ــ مفتخرين ــ بأنهم « ديموقراطيون » مثلاً .**

هذا مع أن الطريق واحدة والنهاية حتماً ستكون واحدة غير أن الصورة لم تكتمل

(٢٢) فتح المجيد : ٨٢ ــ ٨٣ والترقيم مضاف أما بقية شروط الشهادة فهي المحبة والانقياد والقبول

بعد[٢٣].

شبهة أخرى :

* وهناك شبهة أو علة أخرى أصبحت « تقليدية » لكثرة ماردها البغاوات وهي **أن الشريعة ثابتة والحياة متطورة والثابت لا يفي بمتطلبات المتطور ومن ثم كان لابد من إيجاد مصدر آخر للتشريع يعتمد على العلم العصري والتجارب الإنسانية مع الاحتفاظ للدين بدائرة التوجيه الروحي للأفراد وهذا هو حال العلمانية !**

وهذه الشبهة ــ التي أطلقها أول ما أطلقت أعداء الإسلام الحاقدون ــ لا يطرحها إنسان عرف الله حق معرفته وقدَرَه حق قدره ، فإنها تعني بداهة ــ اتهامه تعالى عن ذلك علواً كبيراً بالجهل والقصور ، والموقف الواجب اتخاذه حيال قائلها هو قبل كل شيء دعوته إلى الإيمان وتعريفه بقدر الله تعالى .

لكننا سنقطع النظر عن هذا ونفترض ورودها من إنسان يريد التثبت من دينه وحينئذٍ نقول : إن هذه الشبهة لا تستحق أن تكون موضع نظر إلا إذا سلمنا بثبوت طرفيها وهما :

١ ــ أن الشريعة ثابتة بمعنى أنها أحكام جامدة لا تقبل المرونة محدودة لا تقبل التوسع .

٢ ــ أن الحياة البشرية متطورة بمعنى أنها لا شيء فيها ثابت على الإطلاق .

والواقع أن كلا الافتراضين خاطىء تماماً وأن مصدر هذه الشبهة إنما هى اللوثة التي أصابت أوروبا فانتقلت من الإيمان بالثبات المطلق إلى التطور المطلق حتى حسبت كل تغير تطوراً .

إن التصور الإسلامى لا يقر الثبات المطلق ولا يؤمن بالتطور المطلق بل ينفرد باعتبار قانون سير الحياة هو « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت »[٢٤] وهي ميزة ما كانت لتكون لولا أنه من عند الله .

(٢٣) انظر « في ظلال القرآن » : ٣/١٢١ فما بعدها

(٢٤) انظر فصل « الثبات » من كتاب خصائص التصور الإسلامي : ٨٦

ونتيجةً لذلك جاءت الشريعة حاكمة لكلا طرفي الحياة البشرية الثابت والمتغير في إطار عام لا يشذ عنه شيء منهما .

ولقد كان سلف الأمة يَعُون حقيقة تغير الحياة وتطورها تمام الوعي .

نتبين ذلك من قولة « عمر بن عبد العزيز » المشهورة : « يجدُّ للناس من الأقضية بقدر ما أحدثوا مِن فُجور » .

ونتبيّنها من عدول « الشافعي » — حين انتقل إلى مصر — عن كثير من آرائه الفقهية التي استنبطها بالعراق حتى أصبح له مذهبان : قديم وجديد .

ونتبيّنها من القاعدة الأصولية التي تنص على تغير الفتوى بتغير الظروف والأحوال .

أدركوا هذا مع إدراكهم الجازم للحقيقة العميقة الكبرى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [المائدة : ٣] كما سبق في كلام ابن القيم من الفصل السابق . ومع إيمانهم المطلق بمدلول قوله تعالى ﴿ **أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وفهم هذه الحقيقة بجانب فهم قاعدة الوجود الكبرى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] يرسم الإطار العام للشريعة والدائرة الشاملة للحياة البشرية والتي لا تزيد على ثلاثة أقسام :

القسم الأول

— جوانب ثابتة متعلقة بحقيقة الإنسان ذاته أنى وجد في أي زمان ومكان تلك الحقيقة التي لا تتغير ولا تتبدل على الإطلاق : وهذه جاءت الشريعة لها بأحكام تفصيلية ثابتة كثباتها ، فصّلها الله تعالى تفصيلاً كالشعائر التعبدية المحضة من صلاة وصيام وحج وكأحكام الطهارة المختلفة وكأحكام الأسرة من نكاح وقوامة وطلاق وعدة وكالمحرمات الرئيسية الثابتة من زنا وخمر وسرقة وخيانة ... إلخ . فهذه فُصّلت بمقتضى الحكمة والهداية الربانية التي لا يملكها البشر ولو وُكل

شيء منها إليهم لضلّوا وتاهوا .

القسم الثاني

ـــ جوانب ثابتة الجوهر والهدف لكنها متجددة الصور متغيرة الأساليب حسب سنة الله الكونية : مثل نوع الحكم وطريقته والمنهج الاقتصادى للأمة والخطة التعليمية ... وما أشبهها .

وهذه وضعت لها الشريعة قواعد وضوابط عامة لا يصح أن تخرج عنها .

* فالحكم مثلاً يقوم على أصول ، منها : أن يكون بما أنزل الله وأن يكون شورياً ، ومراعاة جلب المصالح ودرء المفاسد ، وسياسة الناس بالعدل وتوفير أقصى حد ممكن من الأمن والطمأنينة للرعية ... وتركت التفصيلات ـــ رحمة من غير نسيان ـــ إلى اجتهاد الأمة مثل كيفية وشروط المبايعة والعزل وتحديد الشورى وكيفية تنظيم الولايات والقضاء وتحديد المصلحة أو المفسدة ... إلخ .

* والاقتصاد يقوم على أصول ، منها : أن المال كله لله،والبشر مستخلفون فيه ، وجوب تأمين الضروريات لكل فرد ، تحريم أكل أموال الناس بالباطل في أي صورة ، تحريم الربا والمُكُوس ، النهي عن الاحتكار والجشع ، النهي عن أن يكون دُولة بين الأغنياء ، الحث على الإنفاق ووجوبه إذا اقتضت الضرورة ... إلخ .

ـــ أما أسلوب وضع الخطط الاقتصادية ، وضمان تحقيق هذه الأصول وكيفية التعامل المباح بين المؤسسات العامة والخاصة وإشراف الدولة أو سيطرتها على الإنتاج أو التجارة وما أشبه ذلك فهي موكولة أيضاً إلى اجتهاد الأمة في حدود تلك الأصول .

وهكذا بقية مجالات الحياة المماثلة .

هذا مع التنبيه إلى أن الاجتهاد ـــ المباح أو الواجب هنا ـــ يجب أن تتوفر فيه – فوق كونه طبعاً فيما لا نصّ شرعياً فيه – شروط منها :

(أ) أهلية المجتهد فليس من حق أي موظف أو مسؤول أن يجتهد حسب هواه .

(ب) ألا يصادم نصاً أو قاعدة شرعية أخرى .

القسم الثالث

ـــ الأمور الدنيوية المحضة : ونعني بها الأنشطة البشرية التي لا علاقة لها في ذاتها بالهدى والضلال والتي اقتضت حكمة الله تعالى أن تعتمد على سعي الإنسان وخبرته كي يحقق بنفسه معنى استخلافه في الأرض واستعماره فيها وذلك كالضرب في الأرض لاكتشاف أسرار الكون أو ما يسمى « خواص المادة » واستخدامها لترقية الحياة البشرية وتذليل صعابها وكسائر الأعمال والمسائل التطبيقية التي تخضع للتجربة البشرية ويمكنها معرفتها بالتنقيب عن نواميس الكون المسماة « القوانين الطبيعية » مثل شؤون الزراعة والصناعة والعمارة وكل مظاهر الحياة المادية[٢٥] .

وهذه موكولة بكاملها إلى الجهد البشري إلا أنها بوقوعها في دائرة الحياة البشرية تخضع للغاية الأساسية من الوجود « العبادة » من جهة أنها جزء من الحركة الإنسانية التي ينبغي أن تكون كلها لله وحده لا شريك له فهي بصفة عامة مندرجة تحت « المباح » الذي هو أحد الأحكام التعبدية الخمسة ولكن الأحكام الأخرى « الوجوب ، الندب ، الحرمة ، الكراهية » قد تسري عليها إما لغرض الاستخدام أو كيفيته ، وبالجملة فهي سلاح يستخدمه الشرطي كما يستخدمه اللص لكن المؤمن يستخدمها باعتباره الشرطي الحارس لحدود الله تعالى .

وبما أنه ليس في الحياة البشرية شيء يبقى بعد هذه الأقسام أو يخرج عنها فلم يعد هنالك ما يبرر أية شبهة حول إسلام الحياة كلها لله خالصة له وحده مستقيمة على حكمه وشرعه .

* قدمنا أن العلمانية باعتبارها نظاماً طاغوتياً يتنافى مع (لا إله إلا الله) من

(٢٥) انظر قبسات من الرسول : الفصل الأخير ، وتهافت العلمانية : ١٤، ١٥ ، ومنهاج الإسلام في الحكم : ٣٨، ٣٩

ناحيتين أساسيتين .

أولاً : من ناحية كونها حكماً بغير ما أنزل الله .

وثانياً : الشرك في عبادة الله

كما أن هذا الدين يوحّد الخالق سبحانه وتعالى بردِّ الأمر كله إليه فإنه يوحّد المخلوق بجعله عبداً خالصاً لله تعالى لاتتجاذبه الشركاء ولا تمزقه السبل .

إن الوحدة هي الحقيقة الكبرى في الكون : فالخالق تعالى واحد ، والكون بسننه ونواميسه واحد ، والإنسان في جوهره وغاية وجوده واحد .

والكون بكامله يتجه إلى الله اتجاهاً واحداً بالعبادة ﴿ **وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ [آل عمران : ٨٣] وكذلك ينبغي للمخلوق الاختياري « الإنسان » أن يتجه ، وإلا فالتصادم والتمزق والضياع .

لقد اختصر « الفرد نورث وايتهيد » نظرية « غوته » و « اشبنجلر » الضخمة عن انهيار الغرب في كلمة واحدة « تجزئة الطبيعة »[٢٦] أي افتعال التصادم بين ماهو فطري وما هو منطقي ، وما هو طبيعي وما هو غير طبيعي ، ماهو روحي وما هو مادي .. واختصرت الوجودية مأساة الإنسان في كلمة واحدة أيضاً « التمزق » بين الأنا والعالم ، بين الطبيعي وما فوق الطبيعي ، بين الشعور والمنطق .

وهنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده حين منحهم بالإسلام التصور الصحيح الذي « يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ، يردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء ، جهة واحدة ترجوها وتخشاها وتتقي غضبها وتبغي رضاها ، جهة واحدة تملك لها كل شيء لأنها خالقة كل شيء ومالكة كل شيء ومدبرة كل شيء .. كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد تتلقى منه

(٢٦) انظر سقوط الحضارة ، كولن ولسن : ١٣٠

تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها ، وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان بكل ما يثيره من علامات الاستفهام .

« عندئذ تتجمع هذه الكينونة ، تتجمع شعوراً وسلوكاً وتصوراً واستجابة في شأن العقيدة والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي وشأن الحياة والموت وشأن السعي والحركة وشأن الصحة والرزق وشأن الدنيا والآخرة فلا تتفرق مزقاً ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق[٢٧] .

وهنا يتجلى كذلك مدى الانحراف الذي حصل **بالتفريق بين العقيدة والشريعة** ، **وبين الدنيا والآخرة** ، **وبين العبادات والمعاملات** ، ذلك الانحراف الذي أدى إلى انحسار مفهوم الدين ومفهوم العبادة إلى أقصى الحدود .

هذا الانحراف حين يصبح فكرة واعية ومبدأ مرسوماً يفرق دين الله ويمزق حركة الإنسان ــ أي عبادته ــ ويفصل دنياه عن آخرته أو كما قال محمد أسد « يفصل الإنسان عن مصيره » حينئذ يكون هذا الانحراف شركاً في عبادة الله لا يقبله الله ولا يرضاه وهذا هو الشأن في العلمانية .

* والظروف والملابسات التى عرضنا لها فيما سبق هى المسئولة عن تقسيم حياة الناس والإنسان فى الغرب إلى دوائر مستقلة لا علاقة لإحداها بالأخرى ومن ثم جاء دور الانهيار المحتوم .

* أما التفريق بين العقيدة والشريعة فحسبنا ما أسلفناه عن حكم من لم يلتزم بشريعة الله من الآيات والدلائل ويكفي أن الإيمان بالعقيدة ينتفي بمجرد رفضه ذلك الالتزام ، وأما التفريق بين الدنيا والآخرة بين الحركة والمصير فنقول فى شأنه : إن الدنيا في التصور الإسلامي لها قيمة ذاتية غير كونها وسيلة للآخرة ، ذلك أنها المكان الذي تتجلى فيه صفات الله تعالى وأسماؤه من رحمة وغضب ، وعقوبة ومغفرة ، وقدرة وإرادة ، كما أنها المكان الذي تقع فيه العبادة الاختيارية

---

(٢٧) خصائص التصور الإسلامي : ١٢٨ ــ ١٢٩

لله تعالى ومن ثم استحقت إنزال الكتب وإرسال الرسل .

من هنا كانت كل حركة الإنسان فيها مفروضاً أن تكون لله ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢] حتى الحركات التي تبدو علاقاتها بالعبادة في أذهاننا بعيدة :

* فالمتعة الشخصية مثلاً هي عبادة لها أجرها بالنسبة للمؤمن كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **وفي بضع أحدكم صدقة** »(*) الحديث .

وقال : « **كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوس وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق** »(٢٨)

* والصناعة التي يقوم بها الفرد أو الأمة المسلمة عبادة أيضاً ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ [الأنبياء : ٨٠].

— وفي قصة ذي القرنين يبرز السياق القرآني قيمة استخدام العلم الصناعي في مصلحة البشرية على يد الخبير المسلم .

وفي الحديث « **إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثةً الجنةَ : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، والمُمِدَّ به** »(٢٩).

* ومثلها الزراعة « **إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها** »(٣٠).

و « **ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو**

(*) رواه مسلم فى الزكاة باب [كل نوع من المعروف صدقة] ٩٢/٧

(٢٨) سنن الترمذي : ١٣٤/٤ وهو صحيح وزاد النسائي « وتعلم السباحة » !

(٢٩) سنن الترمذي ١٧٤/٤ وقال : حسن صحيح

(٣٠) رمز في الفتح الرباني لرواية أحمد والبخاري له في الأدب المفرد وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ٧/٢

بهيمة إلا كان له به صدقة »[٣١].

وهكذا كل نواحي الحياة الإنسانية للمؤمن ، قال بعض السلف « والله أني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي » .

وقد كتب أحد العلماء كتاباً أسماه « البركة في فضل السعي والحركة » أثبت فيه أن النية الحسنة تقلب حياة المؤمن كلها عبادة بجميع حركاتها وسكناتها وأن الزراعة والصناعة والتجارة من فروض الكفايات[٣٢].

وتطبيق هذه الحقيقة هو حقيقة الإخلاص كما قال سهل التستري : « نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء .. »[٣٣].

وقد أدرك هذه الحقيقة القلائل الذين هداهم الله للإسلام بعد طول تمزق وضياع يقول أحدهم « محمد أسد » :

« يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر : إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً ، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً ، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله ، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها حتى تلك التي تظهر تافهة على أنها عبادات : أي نأتيها بوعي وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله ، تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد ولكن أليس من مقاصد الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

---

(٣١) فتح الباري : ٣/٥

(٣٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الوصابي ت ٧٨٢ هـ

(٣٣) مقدمة المجموع للنووي : ١٧/١

« إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل ، إنه بعلمنا **أولاً** أن عبادة الله الدائمة والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها هي معنى هذه الحياة نفسها ، ويعلمنا **ثانياً** أن بلوغ المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية وحياتنا المادية ، يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكون كلاً واحداً متسقاً . إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا » .

« هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الإسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة ، ذلك أن الإسلام على أنه تعليم لايكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة بين الفرد وخالقه فقط .

ولكن يعرض أيضاً بمثل هذا التأكيد على الأقل للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية ، إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفه عادية فارغة ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هى آتية لا ريب فيها من غير أن تكون منطوية على معنى ما ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها والله تعالى « وحدة » لا في جوهره فحسب بل في الغاية إليه أيضاً ، من أجل ذلك كان خلقه وحدة ربما في جوهره إلا أنه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد .

« وعبادة الله في أوسع معانيها — كما شرحنا آنفاً — تؤلف من الإسلام معنى الحياة الإنسانية هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية ... »(٣٤) .

إن الإنسان — كما قررنا سلفاً — عبد بفطرته وطبيعته سواء أكان من سكان الأحراش أو ناطحات السحاب ، وكون العبودية صفة ذاتية ملازمة له يحتم عليه أن يسير وفق إرادة معبود ما ، إما الله تعالى وإما سواه ، غير أنه لما كان لايمكن أن يستغني عن الله بحال وأن يخرج عن نواميس الله الكونية مهما بلغ من الكفر والجحود فإنه ليس أمامه سوى أحد احتمالين :

---

(٣٤) الإسلام على مفترق الطرق : ٢٣ — ٢٥

١ ــ أن يسير وفق منهج الله تعالى وبذلك يتلاءم ويتناسق مع الكون ومع نفسه ، ومع نواميس الله الثابتة فيصير وحدة واحدة متجهة إلى الله في طريق واحد .

٢ ــ أن يختار غير طريق الله وهذا لايجعله خالصاً لغير الله على الإطلاق مهما كابر وألحد . ذلك أن جوانبه غير الإرادية على الأقل لا يمكن أن تنفصل بحال عن السير وفق سنن الله ونواميسه .

ونتيجة ذلك أن من اختار غير طريق الله لا يعدو أن يكون قد حكم على نفسه بالتمزيق والتشتت والتصادم اللهم إلا لو استطاع أن ينفذ من كون الله ويتحدى سننه وهو أبعد المحال .

ولقد صور الأسلوب القرآني هذه الحالة أبلغ تصوير :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[الزمر : ٢٩] .

وهذا يصدق على كل من تلقى عن غير الله حتى وإن ادعى الإسلام ، يقول الدكتور « عماد الدين خليل » :

« إن الإنسان الذي يؤمن بالإسلام ذلك الإيمان المبتور المشوه سرعان ما يجد أمامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين ، ذلك أنه محا الإيمان ــ في قرارة نفسه ــ من بعض عناصر ومقومات الإسلام وأكده في عناصر ومقومات أخرى وهو بعمله هذا لم ينل من وحدة الإسلام الدائم شيئاً ولكنه وجّه ضرباته إلى صميم الكيان الإنساني وإلى وحدة الذات الإنسانية ذلك أنه سيجد نفسه مضطراً إلى الاستعاضة عن العناصر والقيم التي رفضها بعناصر وقيم أخرى يجيء بها من هنا وهناك ويرصُّها رصّاً ، عناصر لا تمتلك ــ بمجموعها ــ توحد القيم الإسلامية وتكاملها لأنها لم تنبثق عن تصوره الأصيل .. ثم هي فيما بينها تعاني تناقضاً محزناً لأن كل عنصر أو كل مجموعة من القيم جيء بها من تصور فرد من الأفراد ، إنسان من ملايين الناس وما هي في الحقيقة سوى نتاج ردود فعل نفسية وفكرية لهؤلاء الأفراد مع واقع معين بأمدائه المحدودة بحدود

الزمان والمكان ومن ثم سيتشتت هذا الإنسان (الآخذ) وسيضيع .. إنه آمن بوحدة عقائدية متكاملة ظاهراً ، لكنه ـــ في حقيقة ـــ تكامل زائف لأنه سعى إلى رص عناصر لا انسجام فيما بينها ولا تآلف في تركيبها وحاول ـــ جهلاً وعناداً ـــ أن يجعل منها منهجاً موحّداً لحياة موحدة لا تقبل التجزئة »(٣٥).

وبذلك تتبين خطورة الادعاءات الزائفة الخادعة بأن الإسلام دين عبادة بمعنى أنه رابطة روحيه بين الإنسان وربه لا صلة لها بحركة الإنسان في الحياة ـــ فرداً أو مجموعاً ـــ تلك الادعاءات التي تلغي الإسلام من أساسه وتهدم العبادة من أصلها ، ولا تتورع مع ذلك أن تمن على الله أنها أعطته جزءاً من كيان الإنسان وجركته ـــ اللذين لايقبلان التجزؤ أصلاً ـــ جزءاً يسميه أدعياؤها الروح في مقابل إعطاء المادة للشيطان ، أو الفترة الروحية في مقابل إعطاء العمر كله للشيطان ، هذا والله تعالى يقول لهم : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عَمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشِرْكَه** »(٣٦).

إن هؤلاء بتقسيماتهم العوجاء لا يضرون الله شيئاً ـــ سبحانه هو الغني الحميد ولكنهم يُنزلون بأنفسهم وبالبشرية من ورائهم أفدح الخسارة وأوخم العاقبة .

لنسمع ما يقوله أحد أولئك الأدعياء (وهو وإن كان غير مسلم فإن كثيراً ممن يحسبون أنفسهم مسلمين يؤمنون بما يقول لكنهم قد يواربون ويُلَبِّسون) :

« لو كان المتفقهون يعنون بالروحانية (يقصد الدين) أن وراء هذه الحياة قوة غير منظورة هي مصدر كل حياة وأن هذه القوة لا يحدُّها زمان ولا مكان وهي التي تلهم الإنسان المحبة والصلاح والخير ..

« وبكلمة أخرى لو كانت الروحانية لا تتعدى العلاقة بين الإنسان والله ولا تتدخل في شؤون الإنسان الحياتية في دنياه وتحصر تدخلها في شؤونه فيما بعد

---

(٣٥) تهافت العلمانية : ٦٢ ـــ ٦٣

(٣٦) حديث قدسي رواه مسلم : ١١٥/١٨ بشرح النووي

الحياة فليس من شأن أحد وإن لم يكن مؤمناً أن يُحَمِّل هذه الروحانية تبعة الجمود الفكري وما ينتج عنه من تأخر وجهل ولكن المتفقهين لا يكتفون بهذا ولا يقفون عند هذا الحد بل هم يتوسعون في فقههم ويحشرون الروحانية في كل أمر من أمور الدنيا حتى كادوا يقيّدون بها العقل البشري ويمنعونه من الانطلاق مبشّرين بالحتمية التي توحي بها الروحانية ومغلقين الباب دون أي جدل أو نقاش أو معرفة ويذهب بعضهم إلى أبعد من التبشير إذ يسن الشرائع كي يتقيد بها الناس في حياتهم الفردية والعائلية والمعاشية والاجتماعية والاقتصادية موهميهم أن هذه الشرائع إنما هي وحي هبط من الله الكلي القدرة فمن يخضع لها كانت له السعادة السرمدية ومن يكفر بها أو يحث فيها يستحق العذاب في دنياه ويستحق نار جهنم فيما وراء دنياه »[٣٧].

أليس هذا هو بعينه مايريده رافعو شعار « الدين لله والوطن للجميع » وشعار « لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين » من أدعياء الإسلام أو ليس هذا أيضاً هو ما يطبقه الذين يجعلون للدين برامج « روحية » ضمن أجهزة الإعلام الشيطانية وأحكاماً شخصية ضمن قوانين الحكم الجاهلية ويقولون إن مكان الدين هو المسجد فقط ويحجون لبيت الله في العمر مرة ويقصدون بيوت أعداء الله شرقاً وغرباً كل حين يتلقفون المناهج ويتلقون التشريعات ؟

أي قيمة لمثل هذه الأقوال والادعاءات والواقع المأسأوي في أوروبا في كل مجال يكذبها وينافيها ، أوروبا التي طبقت العلمانية على الفكر والحياة من قبلنا فلم تجن إلا الدمار والضياع ، ألا نتعظ بها ونستفيد من تجربتها ؟ أليس الأجدر بالمسلمين أن يحمدوا الله على أن حرّمَ الشرك وأبطله ورحمهم بشريعة لاتمزق فيها ولا ضياع ؟

إننا نتوجه بالسؤال إلى من يدعي الإسلام من هؤلاء فنقول : إذا أخرجنا — على سبيل التحكم — جزءاً من النشاط الإنساني في الحياة — إما السياسة وإما

---

(٣٧) قصة الإنسان ، جورج حنا : ٢٥٨

غيرها — عن دائرة الدين فمن أين نتلقى منهج وقيم وموازين هذا الجزء ؟

وأياً ما كان الجواب فإن نتيجته ومؤداه أمر واحد لاريب فيه : التلقي عن غير الله ، قد يقال : نتلقى ذلك ونستمده من التجربة البشرية على مر العصور أو من اجتهادنا الذاتي وأفكارنا الخاصة أو ما تمليه الظروف والملابسات العصرية أو .. من أي شيء كان ، المهم أن النتيجة المنطقية لذلك هي الشرك بالله وهل هناك صورة من صور الاعتراف بالشرك أصرح من هذه ؟ أعني شرك الطاعة والاتباع — إنه شرك في عبادة الله وإن كان الذين يمارسونه قد يجهلون معنى عبادة الله ، وما ذلك بغريب على الجاهليين فإن « عدي بن حاتم » — رضي الله عنه — في الجاهلية لم يكن يتصور أن ذلك عبادة فإنه لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تلا صلى الله عليه وعلى آله وسلم قوله : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ [التوبة : ٣١] **فقال عدي** (وكان نصرانياً) : يا رسول الله لسنا نعبدهم ! ، قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : فتلك عبادتهم »[٣٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقاً على ذلك : « قد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يُصلُّون لهم ويسجدون لهم »[٣٩].

وليست عاقبة هذا الشرك هي الخلود المؤبد في النار فحسب بل إن أتباعه ليَصْلَون نار الضياع والتمزق والقلق في هذه الدنيا وهذه بعض النتائج السيئة للعلمانية على الإنسان الذي يعيش في ظل حياة ترتكز قاعدتها على هذا المبدأ الإشراكي .

---

(٣٨) انظر رواياته في الدر المنثور : ٣/٢٣٠ وأصله في الترمذي : كتاب التفسير وسنده حسن .

(٣٩) فتح المجيد : ٨٦ نقلاً عن الإيمان

يقول الدكتور عماد الدين خليل :

« في ظلال المجتمع العلماني **يتمزق الإنسان بناء على تمزق** مصيره ، **وتزدوج شخصيته** اعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح ، والجدران التي أقامها بين تجربتي الحس والوجدان ، والجفاء الذي باعد به زيفاً بين عالمي الحضور والغياب ، بين ما هو قريب مرئي وما هو بعيد لا تراه العيون ، **والتصور الذي يصدر عنه ذلك الإنسان لا يوائم** ـــ بحال ـــ بين العلاقات المعقدة المتشابكة التي تحكم الكون والعالم والحياة بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعها يمزقها تمزيقاً ويعمل فيها تقطيعاً وتشويهاً فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة وما بينها جميعاً من وشائج وارتباطات ـــ تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء .. الدين يتناقض مع العلم ، والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس والمذاهب الطبيعية لا تلزم نفسها بقيم خلقية أو إنسانية ..

وهكذا .. سلسلة من المصادمات التي لا تقتصر آثارها السيئة على العالم الخارجي فحسب بل في أعماق الإنسان وتجربته الذاتية كذلك .. ذلك أن كل قيمة وطاقة أو فاعلية مما ذكرنا ترسم له مصيراً معيناً وتسعى إلى شده إليه فيغدو بالتالي مشدوداً إلى مصائر شتى متفرقة متناقضة لا يسودها التوحد والانسجام وهذا هو السبب العميق الذي يؤدي ـــ في العلمانية ـــ إلى التمزق والازدواج ، فالإنسان العلماني يقسم فعالياته الحياتية إلى قطاعات ومساحات منفصلة يسعى في كل منها إلى تشكيل مصيره في إطار ذلك القطاع أو تلك المساحة وبطريقة (انعزالية) تماماً عن سائر الفعالية ، وهو خلال ذلك لا بد وأن يشعر بالتناقض المرير بين فاعليات حياته جميعاً .. وينظر ـــ أخيراً ـــ فيرى حياته وقد تشتت ، وكيانه الذاتي وقد أصيب بالازدواج « أشعر وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي أشعر أن هناك خطأ في التفريق بين الروح والجسد .. إنني أحلم بشكل من الحياة فيه يسعى الإنسان (كله) روحاً وجسداً في سبيل تحقيق ذاتي أعمق بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر ، وفيه يستطيع

الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيره »(*).

« لقد فتح ذلك الإنسان وعيه على حقيقة محزنة وهي أن ليس ثمة مصير موحد يتحقق وينتمي إليه ، ومن ثم غدت حياته مزقاً مبعثرة لايجمعها رباط ولا يشدها مصير .. يدخل المحراب ليسجد لله ويلعن الطبيعة ويخرج إلى المصنع لينحني للآلة ويكفر بالله .. يركض وراء (العقل) ليخطط له منهاجاً في الحياة الاجتماعية ويسعى إلى الدين ليهبه الطريق في حياته الفردية .. دنياه تتجه إلى الشمال وأخراه تتجه إلى اليمين . فإن أراد الدنيا ابتعد عن الآخرة ، ضاع منه مصيره الخالد .. وإن أراد الآخرة ابتعد عن الدنيا ضاع منه مصيره الحيوي القريب .. وإن وقف في المنتصف يريد أن يوحد مصيره : هنا وهناك ، روحه وجسده ، عقله وإلهه ، محرابه ومصنعه ، تمزق ! ! لأنه يعتقد حتى — قرارة ذاته — أن إرادة الله تسير باتجاه معاكس تماماً لإرادة الإنسان ولما كانت حياة الإنسان (لا تفرغ) من المعنى بل هي استمرار شعوري أو فكري وعملي . ولما كان هذا الإنسان في حالة الاستمرار التي يحياها يسعى إلى تشكيل مصائر شتى اصطنع بينها التناقض والصدام فيمكن القول — عندئذ — إن وحدته قد غدت زائفة تماماً وأنه حرم من مصيره عن طريق تشويه وتمزيق التزاماته بالقيم التي تسود الكون والحياة والعالم بحيث يستطيع أن يقول في أوج ضياعه : أريد أن أفلت من المصير »[40].

والقضية نفسها — قضية توحيد الذات والإرادة والهدف أي بالمصطلح الإسلامي توحيد العبادة — تعرض لها مؤلف أميركي يعمل طبيباً نفسياً واضطر المسكين بحكم عمله إلى الكتابة لمرضاه عن أفضل طريق للتخلص من إرهاق الحياة العصرية وقلقها لكنه في الفصل الأخير من كتابه نسي المرضى واشتغل بنفسه . إنه مريض هو أيضاً ! لماذا ؟ لأنه كما يقول لا يملك الإيمان الصحيح !

فهو يصرخ مستنجداً « إنني محتاج للدين لتنظيم حياتي »[41].

(*) من قوله « أشعر ... » إلى هنا من كلام محمد أسد .

(٤٠) تهافت العلمانية : ٨٣/٨١

(٤١) لمن ترهقهم الحياة ، هارولد فينك : ٢٧٤

ولكن أي دين؟ أهو النصرانية المحرفة ؟ كلا ، إنه يرى أن إيمانها ناقص مشوه : « ومعركتي مع رجال اللاهوت لا ترجع إلى أنهم يقولون لي عن الله أكثر مما يجب بل لأنهم يقولون أقل بكثير مما يجب ، فأنا أبغي معرفة كل شيء عنه سبحانه وتعالى ، فأنا مثل الطفل الشره الذي يحصل في عيد الميلاد على لعبات ست فيبدي أنه صدم لأنه لم يحصل على كل ما في حانوت لعب الأطفال من لعب »[٤٢].

لذلك يعترف في جرأة نادرة :

« إن العالم الغربي لم يهضم بعد الديانات العظيمة التي نشأت في الشرق الأوسط إنه لم يخرج بعد من العصور المظلمة »[٤٣].

إنه لعجيب أن يكون هذا الرجل طبيباً يداوي الناس وهو مريض ولكن الأعجب منه هو أن يبحث الحائرون في الغرب عن دين ينظم حياتهم في حين أن الذين منحهم الله الموهبة الكريمة في الشرق يقولون لا علاقة للدين بشؤون الحياة ويريدون أن ينظموا حياتهم بتناقضات وفلسفات أولئك الحيارى ! !

ونزيد الأمر إيضاحاً بإيراد شاهد على أن الشركاء المتشاكسين يُفقِدون الإنسانَ الأرضَ الثابتة التي يستطيع الوقوف عليها ويزجُّون به في متاهات لا قرار لها وصدامات لا سبيل للخلاص منها ، يقول « سمول » :

« إن رأسمالنا الأخلاقي ـــ إذا تحدثنا بوجه عام ـــ إنما يتكون من مجموعة من الأخلاقيات الإقليمية يُعْوِزُها التجانس . وبهذه الأخلاقيات يحتفظ المجتمع بحركته ولكنه رغم هذ يبعثر مجهوداً هائلاً يبذله في تلك الاحتكاكات التي تعوق حركته ، إننا لا نملك مستوى أخلاقياً عاماً تستطيع أن تحتكم إليه طبقة من الناس ضد أخرى وتستمد منه حكماً تلتزم بقبوله الطبقة التي تخسر القضية »

---

(٤٢) المصدر السابق : ٢٧٠

(٤٣) المصدر السابق : ٢٧٦

« فلنفترض على سبيل المثال أننا وسط صراع من صراعات العمال وأصحاب الأعمال وقد اقترح أن تحال المشكلة إلى التحكيم ، ثم تقابل ممثلو الطرفين المتنازعين فإنه سرعان ما يتبين أن النزاع لا يمكن الفصل فيه على أسس أخلاقية فإن للأطراف المتنازعة وربما لهيئة التحكيم أيضاً مستوى أخلاقياً مختلفاً فأخلاقيات العاملين تقوم على أساس فكرة حق العمل . أما أخلاقيات المحكّمين فإنها قد تتأرجح بين تفسير رجل القانون للقانون المدني وبين فكرة الفيلسوف المتأمل عن الحقوق المثالية الإنسانية للإنسان بوصفه إنساناً أي أنه لا يوجد أخلاقيات مشتركة نرجع إليها فلا المتقاضون ولا المحكمون يستطيع أيهم أن يقنع الآخرين بضرورة التسليم بقاعدة عليا من الحق »(٤٤).

أرأيت ؟ ! إن المجتمع الذي يرفض التحاكم إلى شرع الله والسير على هداه لا يستطيع أن يملك قاعدة عليا من الحق لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف ولا سبيل أبداً إلى توحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعاً والاتجاه المنقاد المستسلم لله تعالى وحده لا شريك له .

وبين فوضى الأرباب والآلهة والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يَسيرُ المؤمن الموحّد بِخُطى ثابتة في طريق واضح أبلجَ لا زلل فيه ولا عِثار وهو مملوء ثقة ويقيناً بأن اختياره لغير هذا الطريق أو تردده في الاستمساك به معناه الكارثة الكبرى والخسارة الفادحة .

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر : ٦٤ : ٦٦] .

* * *

(٤٤) الجماعة ، ماكيفر وزميله : ٢٥٥ ــ ٢٥٦

الفهــرس